من بلاغة
العدد غير المقيَّد لمعدوده
في القرآن الكريم
" دراسة تحليلية "

دكتور
أحمد محمود محمد الجبالي
مدرس البلاغة والنقد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
ـ بنات كفر الشيخ ـ " جامعة الأزهر "

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، سبحانه وتعالى تنزهت ذاته، وتقدست أسماؤه، لا ننفك ، نستهدي به ونستعين ،حمداً يبلغ غاية رضاه، ويعجز الكل عن إدراك كنهه ومداه، فبحمده يستفتح كل كتاب، وبذكره يصدر كل خطاب.

والصلاة والسلام على هادي الأدباء، ومعلم البلغاء ، إمام كل رسول ونبي، وسيد كل عالم وتقي، سيدنا محمد ــ ﷺ ــ صلاة محروسة بالدوام من الفناء ، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء ، كلما سال مداد على طرس، وأشرقت على بني الغبراء شمس.

أما بعد

فإن البيان القرآني العظيم ميدان واسع، ومجال فسيح ، وحقل خصيب، نبتت فيه كل أفانين البلاغة العالية، والفصاحة الواضحة، وأساليب المعاني المطبوعة وصور البيان الظاهرة ، ومحاسن البديع الباهرة ،حتى وصل بالبلاغة العربية إلى مرتبة عالية، ومنزلة سامية لا يدانيها أحد، ولا يستطيع مطابقتها أديب . ولا يقف على مدى كنهها بليغ ، فهو أبلغ كلام سمعته العرب ،لما يتصف به من سهولة في العرض ، وعذوبة في الأسلوب ،ووضوح في المعاني ؛ مما يجعل المخاطب به لا يكابد عناء ولا يشعر بملل في متابعة آياته وانسياب معانيه في قلبه وعقله .

والأسلوب القرآني المعجز بهذه الصفات الكثيرة والمتنوعة كان مهيئا كل التهيؤ لأن يقع في قلب المخاطب، ويتأكد لديه ، ويستقر بداخله . مما كان سبباً رئيساً لدفع العلماء إلى دراسة لغته، وفهم أسرار كلماته وجمله وأسلوبه ، رغبة في الوصول إلى بيان مراد الله من الخلق . وكان ممن وقفوا عليه من بيان وجوه إعجازه : دقته في اختياره

لكلماته . وبراعته في ترشيحه لعباراته، وهذا ما عناه الخطابي بقوله "إذا تأملت القرآن لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعزب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا، وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى الدرجات الفضل من نعوتها وصفاتها . . .واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني".(١)

ومن ثم وجه الباحثون والدارسون وجهتهم إلى آيات الذكر الحكيم يبحثون عن موطن جمال الكلمة في موضعها، ودقة التعبير بها دون غيرها ، وكذلك الجمل القرآنية وما تحمله من جمال في سياقها وجلال في معانيها ، ما لا يستطيع غيرها- مهما اجتهد المجتهدون- من أداء المعنى المراد لكونها اختيار رب العباد .

و معلوم لدى علماء العربية أن كل زيادة على أصل الجملة تحمل معها زيادة على أصل المعنى وهذا من سنن العرب في أساليبهم ، كما تقول: زيدٌ ليثٌ إنَّما شبَّهتَهُ بليث في شجاعته. فإذا قال: زيدٌ كاللَّيث الغضبان فقد زاد المعنى حُسنا وكسا الكلام رونقا، وذلك لأن كل زيادة في المبنى يدل على زيادة في المعنى . (٢) خاصة في الخطاب القرآني المعجز. والجملة العربية تتكون من عنصرين أساسين: "مسند ومسند إليه" ، وما

(1) ينظر : بيان إعجاز القرآن للخطابي ــ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القــرآن : ٢٧ ت / محمد خلف الله أحمد ، و محمد زغلول سلام ، ط/دار المعارف الرابعة

(2) ينظر فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي : ٢٧٠ ، ت :عبد الرزاق المهدي ط: إحياء التراث العربي : الطبعة الأولى ١٤٢٢هـــ - ٢٠٠٢م

زاد على ذلك إنما يأتي لقصد تأسيس معنى جديد في الأسلوب فالكلام كلما زاد حكماً زاد تخصيصاً، وكلما زاد تخصيصاً زاد غرابة، وكلما زاد غرابة زاد إفادة".[1]

والقيد نوع من الزيادة الداخلة على الجملة قصداً لتكثير الفائدة وتأسيس معنى جديد وكلما زادت القيود في الجملة زاد معها فوائد الإسناد[2]

جاء في المطول:"وأما تقيد الفعل وما يشبهه من اسم الفاعل والمفعول وغير ذلك بمفعول مطلق، أو به،أو فيه،ونحوه من الحال والتمييز والاستثناء، فلتربية الفائدة[3]

"فإذا عديت الفعل إلى المفعول، فقلت: " ضرب زيد عمراً "كان غرضك أن تفيد التباس الضرب الواقع من الأول بالثاني ووقوعه عليه ، فقد أجمع الفاعل والمفعول في أن عمل الفعل فيهما إنما كان من أجل أن يعلم التباس المعنى الذي اشتق منه بهما فعمل الرفع في الفاعل ليعلم التباس الضرب به من جهة وقوعه عليه، ولم يكن ذلك ليعلم وقوع الضرب في نفسه،بل أريد الإخبار بوقوع الضرب ووجوده في الجملة من غير أن ينسب إلى فاعل أو مفعول، أو يتعرض لبيان ذلك. فالعبارة فيه أن يقال :"كان ضرب" أو"وقع ضرب" أو "وجد ضرب".وما شاكل ذلك من ألفاظ تفيد الوجود المجرد في الشيء"[4] وعلى ذلك كلما أردنا تكثير الفائدة من

---

(1) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص: ٢/ ٣٢، ٣٣ط دار الكتب العلمية، بيروت.

(2) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة- للخطيب القزويني: ٢/ ١١٤ ت محمد عبد المنعم خفاجي ط / دار الجبل-بيروت الثالثة ١٤١٤ه-١٩٩٣م.

(3) المطول- سعد الدين التفتازاني: ١٥١ ط المكتبة الأزهرية للتراث.

(4) دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني: ١٥٣، ١٥٤ ، ت/ محمود محمد شاكر ط: مطبعة المدني ، القاهرة، -مطبعة المدني جدة -١٤١٣-١٩٩٢م.

الكلام أوردنا على الفعل قيدا آخر. وليست تلك القيود ثقلا في التعبير. وإنما هي وسيلة لزيادة المعنى،وتكثير الفائدة من الكلام ، وهذا يرجع في ذاته على القول بأن كل زيادة في المبنى يتبعها زيادة في المعنى- كما تقدم- هذا هو الأصل في القيد،أو الغالب عليه.

وقد يذكر القيد في الكلام ، ولا يكون الغرض منه تأسيس معنى جديد ، أو مقيد للفعل ومخصص له. وإنما يكون ذكره لغرض بلاغي رمي إليه وأراده المتكلم من ذكره ، وذلك كثير في لغة العرب وأساليبهم، لا سيما آيات الذكر الحكيم التي نزلت على طريقة العرب في كلامهم وأساليبهم قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1]

وقد لفتني هذا الأسلوب البلاغي في القرآن الكريم؛ لما احتواه من مظان كثيرة ومواقع متنوعة لم يأت القيد فيها مؤسساً لمعنى جديد ، أو مكثراً للفائدة، فأردت أن أكشف عن بلاغة هذا الأسلوب، وتحديد قيمته البلاغية في الكشف عن المعنى ، والتركيز عليه ، وتحقيقه وتقريره ، والوقوف على الغرض الذي من أجله سيق المعنى في صورة هذا الأسلوب لتدرك في النهاية بعضاً من بلاغة القرآن الكريم حين اتخذ هذا الأسلوب وسيلة في إظهار أهدافه،وتوضيح أغراضه،فجاء هذا البحث بعنوان:

"من بلاغة العدد غير المقيد لمعدوده في القرآن الكريم"دراسة تحليلية" .

وقد رأيت أن يكون هذا البحث مشتملا على مقدمة ، وتمهيد ، ومبحثين ، وخاتمة ، وفهارس فنية ،

---

(1) سورة يوسف: آية : ٢

*أما المقدمة : فقد تناولت فيها أهمية هذا البحث ، والمنهج المتبع في الدراسة ، والخطة التي يسير عليها .

*وأما التمهيد : فقد اشتمل على تحديد ماهية العنوان حسبما ورد في كتب اللغة وأساليب العرب في كلامهم .

*وأما المبحث الأول:فقد جاء بعنوان:ذكر العدد لقصد المبالغة في الوصف

وأما المبحث الثاني:فقد جاء بعنوان:ذكر العدد لقصد تأكيد المعنى وتقريره

– وأما الخاتمة : فقد تناولت فيها أهم نتائج البحث .

– ثم أردفت البحث بجملة من الفهارس الفنية المتنوعة .

وإذا كان من اللازم لكل بحث أن يكون له نظام يسير عليه الباحث وطريق يسير عليه في بحثه وهو ما يسمى بالمنهج ، فالذي ينبغي التعويل عليه في هذا البحث هو المنهج الكلي التحليلي الذي يعتمد على النظرة الكلية للنص القرآني ، وتحليله في ضوء المقام الذي سيقت له الآيات القرآنية . وإنني بهذه الدراسة أكون قد حاولت أن أقتبس من هذا النور، وإن بدا لي التقصير فحسبي أني قد عزمت بلوغ الأماني، والنية تعظم العمل، ومن كتب قبلي فكمل؟! فالله أسأل أن أكون من المخلصين، وأن يغفر لي كل تقصير . والحمد لله رب العالمين .

الباحث

د/ أحمد محمود محمد الجبالي

التمهيد

في مفهوم القيد والعدد في اللغة العربية

....

يدور المعنى اللغوي لمادة "ق ي د" في المعاجم اللغوية والاستعمال العربي حول معاني:المنع والحبس والحصر، يقال: قيدت الدابة: أي حبستها وقيدت الأسير: أي منعته من حريته ، وكلام مقيد : أي محصور على معنى واحد لا يتعداه على غيره،وضده كلام مطلق أي مرسل يحمل أكثر من معنى ومن المجاز،فرس قيد الأوابد "الحمر الوحشية"[1]:أي أنه لسرعته كأنه قيدها فلا تستطيع مجاراته،ومنه قول امرئ القيس[2] :

وقد أغتدي والطيرُ في وُكُناتها * بمنْجرِد قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ[3]

وقوله أيضا : -

بمُنْجرِد قَيْدِ الأوابدِ لاحهُ * طِرادُ الهوادي كلّ شأو مُغرّب[4]:

---

(1) أساس البلاغة : للزمخشري : مادة : " قيد " / ٢٨٨ ت، محمود فهمي حجازي ط الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسة الذخائر ٢٠٠٣.

(2) امرؤ القيس بن حجر بن مرو الكندي، من شعراء الطبقة الأولى، هاجر إلى قرية من قرى الروم وقام بها ومات فيها، وقبر هناك [الشعر والشعراء لابن قتيبة: ١ /١٠٥ ت احمد محمد شاكر ط. دار المعارف، الثانية ١٩٦٧].

(3) ديوان امريء القيس : ١٦ ت / عبد الرحمن المصطاوي ط ، دار المعرفة - بيروت - الثانية . ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤ م

(4) ديوان امريء القيس : ٧٥

جاء في لسان العرب "القيد معروف، والجمع أقياد وقيود، وقد قيده يقيده تقييدا ، وقيدت الدابة، وفرس قيد الأوابد: أي انه لسرعته كأنه يقيد الأوابد وهي الحمر الوحشية بلحاقها[1].

أما المعنى الاصطلاحي للقيد: فهو أن يذكر الشيء باسمه ويقرن به صفة، أو شرطا ، أو زمان، أو عدد، أو شيء يشبه ذلك فيكون ذلك القرين زائدا في المعنى[2] ، يقول ابن عقيل في بيان الفرق بين المطلق والمقيد"المطلق ما علق الحكم عليه باسمه الأعم،والمقيد ما علق على اسم بنعت،أو صفة،أو غير ذلك[3] فالمطلق عنده شبيه بالعموم، والمقيد شبيه بالحصر والتخصيص.

ومن هنا تظهر العلاقة بين المدلول اللغوي والمعنى الاصطلاحي للقيد؛ فإن دلالة القيد على معنى الحبس والمنع والحصر ظاهر في المعنى الاصطلاحي؛لأن الكلام كلما قرن بمتعلق أو غيره كان المعنى محصورا في ذلك المتعلق ومقيدا عليه ولا يحمل أكثر من معنى القيد.فهو غير مطلق أو مرسل.فالكلام إذا كان مطلقا ذهب في تأويله العقل كل مذهب.

وتتفاوت مراتب المقيد في تقييده باعتبار قلة القيود وكثرتها، فما كانت قيوده أكثر ، كانت رتبته في التقييد أعلى ، وهو فيه أدخل ، شريطه

---

(1) لسان العرب : مادة : قيد ط . دار لسان العرب

(2) ينظر:الصاحبي لابن فارس:٣١٦ تحقيق:السيد أحمد صقر ط.الهيئة العامة لقصور الثقافة . سلسلة الذخائر ٢٠٠٣

(3) ينظر:الواضح في أصول الفقه:لأبي الوفاء علي بن عقيل البغدادي:١/ ٢٥٦تحقيق عبد الله التركي ط.مؤسسة الرسالة . بيروت ، الأولى ١٤٢٠هـ

أن يقتضيه الحال. ويطلبه المقام بيد أن ثمة خلاف بين النحويين والبلاغيين في فائدة القيد "أو المتعلقات" ..

فالنحويون يرون أنها من باب الفضلة التي يمكن الاستغناء عنها في الجملة، لكونها تأتي- عندهم- بعد إتمام الفائدة، كالأحوال والنعوت، وغيرها ، أما البلاغيون فإنهم يرون أن القيود لا تختلف عن أركان الجملة من حيث الفائدة ، والأسرار التي تكمن وراءها، فلا فرق بين الفاعل والحال، ولا بين المبتدأ أو الصفة، فكل له فائدته ومقامه الذي يستدعيه، فإذا استدعاه المقام كان الكلام بليغا ، وله أسرار وفوائده، وإذا لم يستدعه المقام ، ولم تتطلبه الحال ،كان خارجاً عن حد البلاغة، وكان كلاماً مردوداً سواء أكان ركناً في الجملة، أم قيداً من القيود .

والعد :إحصاء الشيء على سبيل التفصيل قال تعالى:﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾[1] وقيل : هو ما وضع لكمية الآحاد ، أي الأفراد . [2] ، وقيل:هو ما ساوى نصف مجموع حاشيتيه الصغرى والكبرى على السواء،كـ"الاثنين "فإن حاشيته السفلى:(واحد) وحاشيته الكبرى:(ثلاثة) ومجموع الحاشيتين (أربعة)، ونصف الأربعة :(اثنان) وهو المطلوب ،والمراد بالعدد هنا الألفاظ الدالة على المعدود [3] ويعني هذا أن أصل العدد في اللغة العربية إنما يأتي لقصد حصر أفراد معدوده فيه وتقييد المعنى به لا يتعداه إلى غيره ، ولا يفهم من اللفظ سواه ، فيقال : عندي

---

(1) سورة مريم : آية : ٩٤

(2) التعريفات : للجرجاني : ١٩٢، تحقيق دكتور /عبد الرحمن عميرة ، ط عالم الكتب ، الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م

(3) ينظر: التصريح بمضمون التوضيح ، للشيخ خالد الأزهري ٤/ ٤٥٩ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان – الأولى ، ١٤٢١، ٢٠٠٠م .

ثلاثة رجال ، وخمس نساء ، وعشرة جنيهات ، وخمسة عشرة كتابا ، وهكذا ، فإن المفهوم من منطوق الأعداد وجود ذلك العدد ، وحصر أفراد جنسه في معدوده . والعدد بهذا المفهوم الصريح كثير الوجود في القرآن الكريم ، وله مظان متنوعة وصور متعددة ومختلفة ، ومنه على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] وقوله تعالى :﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[3] ومنه قوله تعالى في بيان بعض معجزات موسى ﷺ:﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم﴾[4] . وقوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام :﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾[5] وقوله في عدد أهل الكهف :﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ

---

(1) سورة البقرة آية : ٢٩

(2) سورة الأعراف آية : ٥٤

(3) سورة يونس : آية : ٣

(4) سورة البقرة آية : ٤

(5) سورة يوسف آية : ٢٩

خمْسةٌ سادسُهُمْ كلْبُهُمْ رجْمًا بالْغيْب ويقُولُون سبْعةٌ وثامنُهُمْ كلْبُهُمْ قُلْ ربِّي أعْلمُ بعدّتهمْ ما يعْلمُهُمْ إلّا قليلٌ ﴾[1] فالعدد في كل ما سبق على سبيل المثال لا الحصر ــ جاء ليدل بمنطوقه ومفهومه على معدود حسابي معين،قيد أفراده فيه لا يتعداه إلى غيره،وهذا هو الأصل في استخدامه في الكلام،ومن ثم كان كثير الوجود في الأساليب العربية لاسيما في القرآن الكريم الذي نزل على طريقة العرب وأساليبهم في الكلام

**ولكن قد يأتي العدد في الكلام بمنطوقه ولا يدل مفهومه على عدد معين ، ولم يكن الغرض من ذكره الحصر أو قيد أفراد معدودة فيه ، وإنما يأتي لغرض آخر رمت إليه البلاغة القرآنية العالية ، وهذا كثير شائع ــ أيضا ــ في الأساليب العربية ، كأن تقول : نصحتك خمسين مرة ، ودعوت لك سبعين مرة ، وزرتك ألف مرة ،فالأعداد -هنا - لم يقصد بها ما يفهم من منطوقها العددي،وإنما ذكرت لغرض المبالغة في كثرة القيام بالفعل وتكراره لحد المبالغة فيه.ومنه قول عنترة مفتخرا[2]:

يا عبل لو أني لقيت كتيبة *** سبعين ألفا ما رهبت لقاها

وأنا المنية وابن كل منية *** وسواد جلدي ثوبها ورداها

ومنه قول على بن أبي طالب ــ ﷺ ــ:[3]

---

(1) سورة الكهف آية : ٢٢

(2) هو عنترة بن عمرو بن شداد العبسي ، وقيل شداد عمه ، وكان عنترة قد نشأ في حجره فنسب إليه دون أبيه ، شهد حروب "داحس وغبراء " فحسن فيها بلاؤه ، وحمدت مشاهده ، له ديوان شعر معروف [ينظر : الشعر والشعراء : ٢٥٠]

(3) ينظر : شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد : ٧٧٩/١ ، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري ، ط.دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان ــ ، الأولى ، ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م . وصبحه: سقاء الصبوح وقت الصباح. ويروى «لأصحبن» من الصحبة

لَأُصْبِحَنَّ الْعَاصِ وابْنَ العاصي *** سَبْعِينَ أَلْفاً عاقدي النواصي

ومنه في البيان النبوي الشريف قوله ـ ﷺ ـ في بيان فضل صدقة المقل: « سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ »[1] ، فالعدد في الأمثال السابقة لم يكن مقصودا في ذاته ولم يأت قيدا لأفراد معدوده فيه وإنما جاء لغرض بلاغي قصده المتكلم من كلامه،وهو المبالغة في التأكيد والتقرير ولهذا فإن الإخبار بالعدد – هنا – لا ينافي غيره ، بمعنى أن الحكم بعد العدد ثابت لا يتغير عما كان قبله ، وإنما الغرض من ذكر العدد المبالغة في وصف الشيء بالكثرة ،

والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وطريقة أساليبهم في الكلام ، ومن ثم كان لمثل هذا النوع من الكلام مظان متنوعة بأغراض مختلفة ، لم يأت العدد فيها لقصد حصر أفراد العدد في معدوده ، أو تقييده في معين وإنما جيء به لغرض بلاغي رمى إليه المتكلم من كلامه ،

وهذا ما سيتضح في ثنايا هذا لبحث إن شاء الله – تعالى ـ

ولعله تحريف. شبه إبالة المكروه بإبالة المحبوب على سبيل التهكم، فهو استعارة تصريحية تهكمية. ويجوز أنه شبه الفرسان لإتيانهم صباحا بالصبوح على سبيل المكنية التهكمية ، ولأصبحن: تخييل. وسبعين ألفا: مفعول ثاني . والمراد به الكثرة . والعاقدين: جمع عاقد ، والمراد : نواصي خيلهم أو أطراف عمائمهم من خلفهم أو شعور رؤوسهم . وعقد الناصية من أمارات الشجاعة والإشاحة في القتال

[1] سنن النسائي :: المسمى بـــ (المجتبى من السنن) للإمام النسائي باب : جهد المقل من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – ٥ / ٢٥٩ ، تحقيق / عبد الفتاح أبوغدة ، ط / مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب ، الثانية ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م

المبحث الأول

ذكر العدد لقصد المبالغة في الوصف

.....

وذلك مثل قوله تعالى في طائفة من المنافقين : -

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [1]

المعنى:إن هؤلاء المنافقين الذي يلمزون المطوعين بالصدقات- على النحو المذكور في الآيات السابقة- قد تقرر مصيرهم، فما عاد يتبدل " فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ " لن يجديهم استغفار، فهو والعدم سواء، فلا رجاء لهم في مغفرة، ولا سبيل لهم إلى توبة، فالقلب البشري حين يصل إلى حد معين من الفساد لا يصلح ، والضلال حين ينتهي إلى أمر معين ، لا يرجي بعده اهتداء [2] والله أعلم بأحوال عباده.

وعلى هذا المعنى : فإن التعبير بالعدد في قوله تعالى ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ، لم يكن قيدا للفعل أو مخصصا لأفراد معدوده، وإنما عبر به لغرض بلاغي رمي إليه وهو التأكيد على إثبات ضلال هذه الطائفة من المنافقين وسوء عاقبتهم، وإغلاق باب الرحمة عليهم جزاء ما فعلوه بالنبي ــ ﷺ ــ وصحابته الكرام ، فليس المقصود بالعدد- هنا- حصره في أفراده، وإنما المبالغة في الوصول بالاستغفار إلى حد لم يصل إليه أحد، فحالهم بالاستغفار وعدمه سواء،

---

[1] سورة التوبة: اية : ٨٠.

[2] ينظر: في ظلال القرآن- للشيخ / سيد قطب ٣ /١٦٨١- ١٦٨٢، يتصرف، ط دار الشروق، السادسة عشرة ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

فالأمر بالاستغفار أو النهي عنه لتلك الطائفة من باب التيئيس من وقوع المغفرة لا للتخيير. قال القرطبي: قالت طائفة في تأويل ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ هو من باب اليأس لا التخيير بدليل قوله تعالى :﴿ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾،وذكر السبعين وفاق جرى، أو هو عاداتهم- أي العرب- في العبارة عن الكثرة. [1] وعلى هذا يكون المعنى: إن استغفرت لهم فلن ينفعهم ذلك الاستغفار ولو بالغت في الإكثار منه،فالفعل والترك سواء في عدم الإفادة، وجلب المنفعة.

وذهب أبو حيان إلى أن هذا الدعاء "الاستغفار" لو كان مقبولاً من الرسول "ﷺ" لكان قليله مثل كثيرة في حصول الإجابة. فثبت أن المقصود من هذا الكلام أن القوم لما طلبوا منه أن يستغفر لهم منعه الله منه، وليس المقصود من ذكر هذا العدد تحديد المنع، بل هو كما يقول القائل : إن سألته حاجة : لو سألني سبعين مرة لم أقضها لك ، ولا يريد بذلك أنه إذا زاد قضاها ، فكذا هنا والذي يؤكد ذلك قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فبين أن العلة التي لأجلها لا ينفعهم استغفار الرسول "ﷺ" وإن بلغ سبعين مرة هي كفرهم وفسقهم وهذا المعنى قائم في الزيادة عن السبعين. [2]

وذكر الإمام الفخر "أنه تعالى لما بين للرسول "ﷺ"- أنه لا يغفر لهم البته، ثبت أن الحال فيما وراء العدد المذكور مساو للحال في العدد

---

[1] ينظر : تفسير القرطبي المسمى بالجامع لأحكام القرآن : ٤/ ٣١٤٥، ط دار الغد العربي، الثانية.

[2] تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: ٥ /٧٩ ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الأولى- ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

المذكور، وذلك يدل على أن التقيد بالعدد لا يوجب أن يكون الحكم فيما وراءه بخلافه[١]

وذهب الإمام الألوسي إلى أن الآية جاءت لبيان عدم المغفرة وإن استغفر لهم حسبما أريد إثر التخيير، أو بيان لاستحالة المغفرة بعد المبالغة في الاستغفار إثر بيان الاستواء بين الاستغفار وعدمه. [٢]

وقد ذهب بعض الفقهاء والأصوليين إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد الزيادة عليه، أي أن العدد يدل على حصر أفراد معدوده فيه، وقيداً مخصصاً لفعل الاستغفار، والحال فيما وراءه يخالف الحكم فيها ما قبلها.واستدلوا على ذلك بقول النبي ﷺ " لأزيدن على السبعين" ، فنزل قوله تعالى في المنافقين :« سواءٌ عليهِمْ أستغْفرتَ لهُمْ أمْ لمْ تَستَغْفِرْ لَهُمْ لنْ يغفِرَ اللّهُ لَهُمْ إنَّ اللّه لا يهْدي القَوْمَ الفَاسقِين ﴾[٣]

فالعدد – على هذا المذهب – جاء على مفهومه الذي وضع له، وهو حصر عدد أفراده وتخصيصه فيه، وذلك بقرينه مذكورة من خارج لفظه دلت على الحصر والتحديد الحسابي ، وهي وراية "لأزيدن على السبعين"، ثم ذكر الآية القرآنية التي تدل دلالة قطعية بعد ذلك على نفي مغفرة الله لهم لعدم توفيقهم سبل الهداية والرشاد، كل ذلك يعد دليلاً

---

(1) ينظر : مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ١٥/ ١٥٠ ط دار الفكر العربي، بيـــروت، لبنان، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م

(2) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الألوسي البغدادي، ١٠/ ١٤٧ ط دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان، الرابعة، ١٤٠٥- ١٩٨٥.

(3) روح المعاني : ١٤٧/١٠ والآية : من سورة : المنافقون : ٦

على أن مفهوم العدد في قوله تعالى : ﴿ إنْ تستغفرْ لهمْ سبعين مرّة فلنْ يغفرَ اللهُ لهمْ ﴾ على حقيقته وأن الحكم معه يخالف حكم ما وراءه.

والذي عندي هو عدم إفادة العدد القيد والتخصيص، وانه لم يأت لحصر أفراد معدوده فيه، كما انه لا يوجب أن يكون الحكم فيما وراءه مخالفاً له ، أو لما قبله . وهو الأولى بالقبول والرجحان لمطابقته لمقتضى الحال، ولما هو مفهوم من السياق الدلالي للألفاظ، والتحليل البلاغي للأسلوب القرآني المعجز التي اشتملت عليه الآية الكريمة. فقد صدر الكلام بصيغة الأمر « استغفرْ » وهي مستعملة في معنى التسوية المراد منها لازمها، وهو عدم الحذر من الأمر المباح، والمقصود في ذلك إفادة معنى التسوية التي ترد صيغة الأمر لإفادتها كثيراً .[1] وقيل: إن الفعل «استغفرْ» أمر معناه شرط. بمعنى: "إن استغفرت أو لم تستغفر لن يغفر الله لهم"،فيكون مثل قوله تعالى: ﴿ قلْ أنفقوا طوْعا أوْ كرْها لنْ يتقبلَ منكمْ إنكمْ كنتمْ قوْما فاسقين﴾[2].أي لن يتقبل منكم أأنفقتم طوعاً أو كرهاً، فالحالتين عند الله تعالى سواء،وهو بمنزلة قول القائل[3]

أسيئ بنا أوْ أحْسني، لا ملومـــ***ــة لدينا ولا مقلّيةٌ إنْ تقلّت

المعنى:امتحني لطف محلك عندي،وقوة محبتي لك،وعامليني بالإساءة والإحسان، وانظري: هل تتفاوت حالي معك،مسيئة كنت أو محسنة. [4]

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: ٥/ ٢٧٨ ط دار سحنون تونس

(2) سورة التوبة: آية: ٥٣.

(3) البيت لكثير عزة في ديوانه : ١٠١ ت: د٠إحسان عباس ، ط بيروت ، ١٩٧١

(4) بنظر: الإيضاح في علوم البلاغة : ٣/ ٨٣، البحر المحيط: ٥/ ٧٨.

ثم عطف أسلوب النهي ﴿ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ على فعل الأمر ليحمل معنى التسوية بمقارنته إياه، ويكون المعنى: أمرك بالاستغفار لهم ونهيك عنه سواء، وذلك كناية عن كون الآمر والناهي ليس بمغير مراده فيهم، سواء فعل المأمور، أو فعل المنهي.. [1]

ومجيء الكلام في صورة الشرط ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ.. فَلَنْ يَغْفِرَ ..﴾ تقييداً للمعنى وتأسيس حكم جديد يفهم منه التيئيس من وقوع مغفرة الله عليهم، وتصدير جواب الشرط فيها بالفاء العاطفة الدالة على الترتيب والتعقيب، وحرف النفي " لَنْ " الداخل على المضارع " يَغْفِرَ " لتنفيه في الحال والاستقبال ،كل ذلك لبيان كون المحكوم به – وهو "عدم مغفرة الله لهم"– واقعاً موجوداً، وثابتا غير متغير حال المبالغة في الاستغفار والإكثار منه وعدمه،وهو عدم الإفادة وجلب المنفعة لتلك الطائفة الباغية

وحذف المفعول به في جملتي الأمر والنهي، وهو من يطلب منه الاستغفار لدلاله الحال عليه، ولبيان أن مقصد الكلام في الجملتين إثبات المعنى في نفسه للشيء على الإطلاق وعلى الجملة من غير أن يتعرض لحديث المفعول لكونه مقصودا معلوما وقد دلت الحال عليه . [2]

كما أن في هذا الحذف كمال العناية بالفعل الذي من اجله سيق الكلام واتصاف الفاعل به وإثباته له،وهو فعل الاستغفار وعدمه من النبي ﷺ ويلمح من حذف المفعول –هنا– المبالغة في نفي الإفادة وعدم جلب المنفعة من هذا الدعاء كأنه لم يصعد إلى السماء ولم يصل إلى الله تعالى، وحجب بينه وبين الوصول إليه سبحانه بحجاب أعمالهم السيئة،

---

(1) التحرير والتنوير : ٥ / ٢٧٨

(2) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة: ١ / ١٣٩– ١٤٠

وأفعالهم الخبيثة، وهم بذلك ليسوا أهلا لان يستغفر لهم قال تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾[1] وهذا على حد قول النبي ﷺ: " ثلاثة لا تقبل منهم صلاة ولا تصعد إلى السماء ولا تجاوز رءوسهم "[2] وفي رواية أخرى: " ولا ترتفع فوق رءوسهم شبرا"[3] ،ونفى رفع الصلاة فوق الرؤوس كناية عن عدم القبول لاختلال شرط من شروط قبولها في صاحبها. ، وكذا طلب النبي ــ ﷺ ــ الاستغفار من الله لهم، وعدمه سواء في انعدام الفائدة منها لاختلال شروط في المستغفر لهم ، وهو أنهم ليسوا أهلا لأن يغفر لهم.

وتكرار ضمائر الغيبة الراجعة إلى المنافقين مبالغة في ذمهم، والتنكيل بهم، بافتضاح أمرهم ، وسوء حالهم حتى يأخذ المسلمون الحذر منهم، والبعد عنهم بعد معرفة باطن حالهم، وسوء سيرتهم، وخبث سريرتهم. .

ومن أجل هذا اختلف أسلوب التأييس من المغفرة بين هذه الآية، وبين ما في آية : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾[4] ، لأن المشركين كفرهم ظاهر فجاء النهي لهم صريحا. وكفر المنافقين خفي

---

(1) سورة فاطر: آية: ١٠

(2) ينظر الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، للإمام السيوطي حديث رقم (٣٧١٩) من حديث ابن عباس – رضي الله عنه – ط دار الكتب العلمية –بيروت – لبنان ، الأولى ١٤٢٣هـ-- ٢٠٠٢ م

(3) ينظر الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير حديث ٣٥١٩ من حديث جابر.

(4) سورة التوبة: آية ١١٣

فجاء التأييس من المغفرة لهم منوطا بوصف يطمونه في أنفسهم، ويعلمه الرسول عليه الصلاة والسلام. [1]

وفي إسناد نفي المغفرة إلى فاعله الظاهر وهو لفظ الجلالة " اللَّهُ " في قوله " فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ " - وهو على خلاف الأصل في الأسلوب القرآني- مع اختيار التعبير بلفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ زيادة في التنكيل بهم ومبالغة في ذمهم ودحضهم، وتخويفهم و سوء عاقبتهم لما في لفظ الجلالة من مهابة وعظمة ترهب القلوب الغافلة،وتزهق النفوس الخبيثة.

والإشارة في قوله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ تعود إلى الحكم بانتفاء الغفران المستفاد من قوله﴿ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ، أي أن امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة في الاستغفار ليس لعدم الاعتداد باستغفارك وإنما لعلة أخرى أوجبت ذلك وهو﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ومن ثم فالباء في قوله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ للسببية أي أن ذلك التأييس من غفران الله لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله، وليس قصوراً في المستغفر أو بخلاً من بيده المغفرة [2]

ومعنى كفرهم بالله ورسوله ، أنهم لا يوقنون بما وصف الله به نفسه من العلم بسرهم ونجواهم، وبسائر الغيوب، ولا بوحيه لرسوله، وما أوجبه من إتباعه .[3]

---

(1) التحرير والتنوير: ١٠ /٢٧٩

(2) ينظر: الفتوحات الإلهية: بتوضيح تفسير الجلالين، للجمل ٢٩٦/٣٠ ط دار الفكر: ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م، فتح البيان: ١٧٠/٤.

(3) ينظر: تفسير المنار للشيخ محمد عبده، ورشيد رضا: ٤٨٨/٩ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب

ولما كانت جملة التأييس ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ من الجمل الغريبة العجيبة لا سيما وإن كان المستغفر رسول الله النبي ـ ﷺ ـ وهو شرط قبول توبة العاصي المنصوص عليه في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾[1] . لما كان الأمر كذلك أثارت جملة التأييس في النفس سؤلا مقتضاه، لماذا لا يغفر الله لهم مع مبالغة النبي -ﷺ- في طلب الاستغفار فكان قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ تعليلا وجوابا عما أثير في النفس من سؤال. وهو كونهم ليسوا أهلا للمغفرة، وإنما المغفرة وعد بها التائبون المستغفرون من ذنوبهم ، إذا استغفرت لهم، أما هؤلاء فهم كفار في باطنهم مصرون على كفرهم فاسقون لأمر ربهم. فكان بين الجملتين شبه كمال اتصال، حيث إن الجملة الثانية- وهي قوله :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . بمنزلة المتصلة بالجملة الأولى -جملة التأييس-. لكونها جوابا عن سؤال مقدر اقتضته الجملة الأولى – كما تقدم- نزلت منزلة السؤال الموجود،ففصلت الثانية عن الأولى، كما يفصل الجواب عن السؤال .[2] ،إذ لا فرق بين جواب السؤال الصريح، وجواب السؤال المقدر، ما دام السؤال موجوداً ومعتبراً في الذهن ؛ لأن السؤال المقدر ليس محذوفا مهملا ، بل هو حي نابض

---

[1] سورة النساء: آية ٦٤.

[2] ينظر : دلائل الإعجاز :٢٣٥ ، ومفتاح العلوم للسكاكي :٢٦٣، تحقيق : نعيم زرزور ط : دار الكتب العلمية بيروت لبنان . الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، والإيضاح في علوم البلاغة : ١١٩/٣

في الذهن، كثير الخوالج والخيالات ، ومن ثم فهو في البلاغة العربية أدخل وأوسع مجالاً من السؤال الصريح .(١)

وتكمن بلاغة هذا الأسلوب البلاغي في هذا المقام في الاتصال المعنوي بين المتكلم والمخاطب في استحضار الذهن، والحوار النفسي ، بوصل الكلام في الجملتين بغير أداة ، كأن الكلام فيه واحد، والمعنى به متصل، زيادة عما في هذا الأسلوب الكريم من إيضاح المبهم، وكشف الخفي الغامض، وجعله ظاهراً واضحاً .

أضف إلى ذلك ما في الجملة الثانية -أيضاً- من استئناف يزداد معه المعنى وضوحاً، ويتأكد به الكلام تأكيداً وتقريرا ،وفي هذا مبالغة في الترهيب والتخويف من الوقوع في شرك أعمال هؤلاء المنافقين المحرومين من مغفرة الله تعالى.

ولما كان قوله تعالى :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ تعليلا للحكم، وجوابا للسؤال المقدر اقتضت الحال أن يكون هذا الجواب مؤكدا بعده توكيدات. ، ومن ثم جاء الخبر في صورة الجملة الاسمية داخله عليه حرف التوكيد "أن" فكأن الكلام كرر مرتين.مبالغة في إثبات علة نفي المغفرة عنهم ،وعليه فالكلام مؤكد بلاغة ودلالة..

وقد زاد هذه الجملة تأكيدا التعبير بالاسم الظاهر موضع الضمير في قوله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ومقتضى الظاهر أن يقول :" ذلك بأنهم كفروا بي وبك" ؛ وذلك لأن الآية من بدايتها جاءت على سبيل الحوار بين الله - تعالى - وبين رسوله ــ ﷺ ــ في صورة أسلوب

---

(١) ينظر : دراسات في علم المعاني : د/ حسن مخيمر:١٩١،ط الأمانة ، الأولى ١٤٠٩هـ ــ١٩٨٩م

الخطاب في قوله : ﴿استغفر لهم أولا تستغفر لهم﴾ ، وإنما عدل من التكلم والخطاب إلى الغيبة في قوله :« فلنْ يغْفر اللّهُ لهُمْ» تسجيلا عليهم ما لا ينبغي أن يكون منهم وهو كفرهم وعنادهم "بالله" واستحباب الضلالة على الهدى فاستحقوا به نفي المغفرة عليهم ، لما في التعبير بلفظ الجلالة "الله" من استحضار الهيبة والعظمة والجلال، وهي معان يتميز بها لفظ الجلالة لاحتوائه على صفات الجلال والكمال والجمال.٠

والتعبير بالاسم الظاهر -هنا- موضع المضمر، يتناسب تمام المناسبة، حتى يرجع بمهابته كل إلى نفسه، ويعرف كل قدره، فلا يغالي القادر من البشر في قدرته، ولا يبالغ من منحه الله نعمة في غرور نفسه[1] فأولى بمثل هؤلاء أن يؤمنوا به ، ويذعنوا لطاعته، ويظهروا التذلل والخضوع لهيبته، وتسجد قلوبهم وجباههم لعظمته. ولكن لضلالهم، وعدم هدايتهم قابلوا المنعم بالجحود والعصيان، فاستحقوا بعملهم البعد عن الهداية ونفي الغفران ولو بلغ المستغفر الغاية في الفضل وأكثر في الاستغفار ،و وصل المبالغة في العد . ٠ثم تأتي خاتمة الآية القرآنية لتؤكد تلك المعاني التي حملتها الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ واللّهُ لا يهْدي الْقوْم الْفاسقين ﴾ . ، فالفسق في كل شيء: التمرد والتجاوز عن حدوده، والمراد بالهداية: الدلالة الموصلة لا الدلالة على ما يوصل، لأنه واقعه لكن لم يقبلوها لسوء اختيارهم.، والجملة تذييل مؤكد لما قبله من

---

[1] ينظر : من بلاغة القرآن فيما يسجد العباد بسببه للرحمن ، دكتور : مالك حسين النعيري : ٢٥ ، ط دار الإتحاد التعاوني الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

الحكم، فإن مغفرة الكفار تكون بالإقلاع عن الكفر، والإقبال إلى الحق، والمنهمك فيه المطبوع عليه بمعزل من ذلك .[١]

وعلى هذا يكون المعنى قد جاء مؤكداً بلاغة ودلالة ، مبالغة في إثبات الحكم عليهم. وفي هذا التذييل سر بلاغي وهو : بيان التنبيه على حرص النبي – ﷺ – في الاستغفار لهم، وعدم يأسه من إيمانهم حيث . لم يعلم النبي – ﷺ – إذ ذاك أنهم مطبوعون على الغي، لا ينجح فيهم علاج، ولا يفيدهم الإرشاد."[٢]

وعلى كل فإن النظرة العامة للسياق الدلالي للألفاظ، والتحليل البلاغي للأسلوب القرآني في الآية الكريمة، نستطيع معها أن نميل إلى أن المراد بالعدد في هذه الآية ليس حصر مفهوم العدد في أفراده ، ولا تقييد معدوده فيه ، وإنما هو المبالغة في الإكثار في فعل الاستغفار من النبي – ﷺ – ، ويؤيد ذلك قول النبي – ﷺ – من حديث ابن عباس ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: « إنّي خُيِّرْتُ فاخْتَرْتُ ، لوْ أعْلَمُ أنّي إنْ زِدْتُ على السَّبْعينَ فغُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ عليْها »[٣] أما استشهاد القائلين بأن، العدد في الآية جاء لحصر أفراده في معدوده، وأنه جاء لتقييد الفعل ، وأن حكم ما بعده مخالف لما قبله، وهو قوله " – ﷺ – .من حديث نافع عن ابن عمر ﷺ قال: « إنَّما خيَّرَني اللَّهُ فقالَ : " اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أوْ لا تَسْتَغْفِرْ لهُمْ إنْ تَسْتغفِرْ لَهُمْ سبْعين مرَّةً وسأزِيدُهُ على السَّبْعين »[٤]

---

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي :١٥٠/١٠

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود : المسمى : ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ٨٧/٤ ط، دار إحياء التراث العربي ، بيروت

(٣)ينظر: صحيح البخاري : كتاب الجنائز: باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار

(٤)ينظر: صحيح البخاري: كتاب تفسير سورة التوبة،باب قوله:استَغفِرْ لهُمْ أوْ لا تَستَغفِرْ لهُمْ

فإن هذا الاستشهاد يمكن حمله على إظهار كمال رحمته ﷺ، ورأفته بمن بعث إليهم، وفيه لطف بأمته، وحث لهم على المراحم، وشفقه بعضهم على بعض، وهذا دأب الرسل والأنبياء عليهم السلام، كما قال سيدنا إبراهيم "عليه السلام: ﴿ فمنْ تبعني فإنّهُ منّي ومنْ عصاني فإنّك غفُورٌ رَحيمٌ ﴾[1]،أو من باب قوله ﷺ من حديث عبد الله:- "اللّهمّ اغْفرْ لقوْمي فإنّهمْ لا يعْلمُون »[2] وكان النبي – ﷺ – يجري عليهم أحكام حالهم بين عامة المسلمين ، والقرآن ينعتهم بسماهم كيلا يطمئن لهم المسلمون ، وليأخذوا الحذر منهم ، فبذلك قضى حق المصالح كلها. [3]

****

<u>ومما هو داخل في هذا الباب قوله تعالى في بيان سعة علم الله -تعالى- المطلق وحكمته البالغة : -</u>

﴿ ولوْ أنّما في الأرْض منْ شجرة أقْلامٌ والْبحْرُ يمُدُّهُ منْ بعْده سبْعةُ أبْحُر ما نفدتْ كلماتُ اللّه إنّ اللّه عزيزٌ حكيمٌ﴾ [4]

المعنى: لو ثبت كون ما في الأرض من شجر أقلاما، والبحر ممدود بأبحر عظيمة وعديدة، وكتبت بتلك الأقلام، وبذلك المداد كلمات الله تعالى، ما نفذت كلمات الله لعدم تناهيها، وتنفد الأقلام والبحار التي بمثابة المداد لتناهيها.

---

[1]سورة : إبراهيم:آية : ٣٦

[2]ينظر: صحيح البخاري : كتاب حديث الأنبياء،باب حديث الغار،من حديث عبد الله بن عمر.

[3]ينظر: التحرير والتنوير : ١٠ / ٢٨٠

[4]سورة : لقمان : آية : ٢٧

والمراد بكلمات الله في الآية،: علم الله المطلق الذي لا يحد بحد. وحكمته البالغة التي لا يقف على حقيقتها واصف، وهذا المعنى هو ما يقتضيه سبب نزول هذه الآية، قال المفسرون: سألت اليهود رسول الله -ﷺ- -عن الروح- فأنزل الله بمكة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] فلما هاجر رسول الله – ﷺ – إلى المدينة أتاه أحبار اليهود، فقالوا: يا محمد بلغنا عنك أنك تقول: " وما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً "،أفتعنينا أم قومك" فقال – ﷺ – "كلا قد عنيت"، فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء، فقال – ﷺ – هي في علم الله سبحانه قليل، ولقد أتاكم الله تعالى ما إن عملتهم به انتفعتم به، فقالوا: يا محمد، كيف تزعم هذا؟ وأنت تقول : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[2] فكيف يجتمع، هذا علم قليل، وخير كثير فأنزل الله تعالى الآية .[3]

وعلى هذا المعنى المفهوم من سبب النزول يتضح بأن المراد بالعدد سبعةٌ في قوله تعالى﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ المبالغة في إثبات الكثرة غير المتناهية للبحور، واتساعها وجعلها – مع كثرتها- مداد لتلك الأقلام لكتابة علم الله وحكمته،فتنتهي تلك البحور الكثيرة والعظيمة ومثلها ولا ينتهي كلام الله وحكمته، وليس المقصود منه حصر البحار في المفهوم العددي، الدال على اختصاص الأبحر بهذا العدد،

---

[1] سورة : الإسراء: اية : ٨٥

[2] سورة : البقرة : اية : ٢٦٩

[3] ينظر: أسباب النزول لأبي الحسن النيسابوري :٣٥٨، تحقيق : كمال بسيوني زغلول، ط: دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولى ١٤١١هـ .

وحصر أفراده فيه، وذلك لأن الحكم فيما بعد العدد غير متغير فيما قبله ولا أمثال أمثاله. وهو أن كلمات الله تعالى لم تنفذ ،ولن تنفذ لكون علم الله وحكمته غير متناه.

قال الألوسي[1]:والمراد بالسبعة:الكثرة بحيث تشمل المائة والألف مثلاً لا خصوص العدد المعروف،كما في قوله ﷺ:{الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ،وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ}[2]. قال ابن حجر: ليس المراد به ظاهره، وإنما مثل ضرب للمؤمن وزهده في الدنيا، والكافر وحرصه عليها، فكان المؤمن لتقلله من الدنيا يأكل في معي واحد. والكافر لشدة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء، فليس المراد حقيقة الأمعاء ولا خصوص الأكل، وإنما المراد التقلل من الدنيا، الاستكثار منها، فكأنه عبر عن تناول الدنيا بالأكل، ومن أسباب ذلك بالأمعاء. . وقيل: إن الحديث خرج مخرج الغالب، وليس حقيقة العدد مراده، قالوا: تخصيص السبعة للمبالغة في التكثير. والمعنى أن من شأن المؤمن التقلل من الأكل لاشتغاله بأسباب العبادة، ولعلمه بأن مقصود الشرع من الأكل ما يسد الجوع. ويمسك الرمق. ويعين على العبادة، ولخشيته - أيضا- من حساب ما زاد على ذلك. والكافر بخلاف ذلك كله، بل هو تابع لشهوة نفسه مسترسل فيها غير خائف من تبعات الحرام[3]

---

(1) روح لمعاني : ١٠ / ١٤٨

(2) صحيح البخاري :كتاب الأطعمة:باب المؤمن يأكل في معي واحد

(3) فتح الباري :بشرح صحيح البخاري : لابن حجر العسقلاني : ١٠ / ٦٧٥ ط : دار الفكر ، الأولى : ١٤١٨ - ١٩٩٧

والمتأمل في أسلوب الآية الكريمة يجد أن جميع ألفاظها تفصح عن هذا المعنى وتؤيده، وتقويه، وتظهره في جلاء لا لبس فيه ولا إغلاق.

فقد بدأت الآية بإيجاز بديع، وصدرت بقوله تعالى " ولَوْ " دلالة على أن ما تحمله الآية من معنى أمره ثابت موجود، وواقع مفروض لا شك فيه.

وعبارة أكثرهم: (لَوْ) حرف امتناع الامتناع، أي: امتناع الثاني لامتناع الأول، عبارة ظاهرها أنها غير صحيحة، لكونها تقتضي كون جواب " لَوْ" ممتنعاً غير ثابت دائما، وذلك غير لازم، لأن جوابها قد يكون ثابتاً في بعض المواضع. ومنه قوله تعالى: ﴿ ولَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وكَلَّمَهُمُ الموتى وحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُون ﴾[1] فليس المعنى: لم ننزل عليهم الملائكة، ولا كلمهم الموتى، ولا حشرنا كل شيء فآمنوا به: بل المعنى: أن إيمانهم منتف في جميع الأحوال حتى هذه الحالة التي شأنها أن لا ينتفي عندها الإيمان [2]. ومنه قول عمر في صهيب ﷺ ": { نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه} ، فنفي العصيان ثابت إذ لو انتفى نفي العصيان لزم وجوده وهو خلاف ما يقتضيه سياق الكلام في المدح"[3]. فالحكم بثبوته على تقدير الخوف أولى.

وفي هذا الاستعمال يضعف معنى الامتناع الموضوع له " لو" لأن التلازم بين شرط " لو " وجوابها غير موجود، ولكنها هنا من قبيل " لو

---

(1) سورة الأنعام: آية ١١١

(2) التحرير والتنوير : ٩ / ٦٥

(3) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي : ٤ / ٣٩٢ ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، ط : دار الفكر بيروت لبنان ، الأولى : ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م

الصهيبية فإن لها استعمالات ملاكها أنه لا يقصد من "لو" ربط انتفاء مضمون جوابها بانتفاء مضمون شرطها: أي ربط حصول نقيض مضمون الجواب بحصول نقيض مضمون الشرط، بل يقصد أن مضمون الجواب حاصل لا محالة، سواء فرض حصول مضمون شرطها، أو فرض انتفاؤه"[1].

وكذا قوله تعالى ﴿ولَوْ أنَّما في الْأرْضِ منْ شجرَة ...﴾ الآية،فعدم النفاد ثابت على تقدير كون ما في الأرض من الشجر أقلاماً مدادها البحار، فثبوت عدم النفاد على تقدير عدم ذلك أولى، وهذا يدل على فساد القول بأن "لو" حرف امتناع لامتناع، لأن جوابها لا يلزم كونه ممتنعا على كل تقدير، لأنه قد يكون ثابتا مع امتناع الشرط كما في الآية. ولكن الأكثر في استعمالها أن يكون ممتنعا[2].

---

[1] ينظر:الجنى الداني في حروف المعاني: للمرادي: ٢٧٣،٢٧٤تحقيق:فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل ط دار، الكتب العلمية. بيروت لبنان– الأولى ١٤١٣، ١٩٩٢م . (لو) المشهورة بين النحاة بلو الصهيبية :بسبب وقوع التمثيل بها بينهم بقول عمر بن الخطاب : «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه» وذلك أن تستعمل (لو) لقصد الدلالة على أن مضمون الجزاء مستمر الوجود في جميع الأزمنة والأحوال عند المتكلم. فيأتي بجملة الشرط حينئذ متضمنة الحالة التي هي مظنة أن يتخلف مضمون عند حصلها الجزاء لو كان ذلك مما يحتمل التخلف، فقوله: «لو لم يخف الله لم يعصه» المقصود منه انتفاء العصيان في جميع الأزمنة والأحوال حتى في حال أمنه من غضب الله، فليس المراد أنه خاف فعصى، ولكن المراد أنه لو فرض عدم خوفه لما عصى { التحرير والتنوير : ٩ / ٣١١

[2] الجنى الداني : ٢٤٧

ومحصل هذا : أن مضمون الجزاء مستمر الحصول في جميع الأحوال في فرض المتكلم، فيأتي بجملة الشرط متضمنة الحالة التي هي عند السامع مظنة أن يحصل فيها نقيض مضمون الجواب[١]..

وقوله ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ ﴾ على التوحيد، دون اسم الجنس "شجر" لإرادة تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا قد بريت أقلاماً، وذلك لأن استغراق المفرد أشمل وأعم ،

"والأقلام" جمع شائع الاستعمال لمفرد "قلم" ويأتي لجمع الكثرة، كما يأتي لجمع القلة، والسياق هو الذي يحدد المراد، وهو هنا بمعنى الكثرة.

"وهذا النوع هو مما أوقع فيه المفرد موقع الجمع، والنكرة موقع المعرفة، ونظيره في القرآن الكريم وأساليب العربية كثير، ومنه قوله تعالى : ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [٢]- وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ[٣]"وقوله تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [٤]- ، وقول العرب: "هو أول فارس، وأفضل عالم" . والمعنى: يريد في الآية الأولى من الآيات، ومن الرحمات، ومن الدواب، وأول الفرسان، وأفضل العلماء، أخبروا بالمفرد والنكرة، وأرادوا به معنى الجمع المعرف "بأل"، وهو مهيع في كلام العرب معروف، وكذلك يتقدر هذا من الشجرات، أو من الأشجار، وفي هذا الكلام من المبالغة في تكثير الأقلام والمداد ما ينبغي أن يتأمل، وذلك

---

(١) التحرير والتنوير : ٩ / ١١١

(٢) سورة البقرة: آية : ١٠٦

(٣) سورة النحل : آية ٤٩

(٤) سورة فاطر: آية. ٢

لأن الأشجار مشتمل كل واحدة منها على الأغصان الكثيرة، وتلك الأغصان كل غصن منها يقطع على قدر القلم، فيبلغ عدد الأقلام في التناهي إلا ما لا يعلم به، ولا يحيط إلا الله تعالى[1].

وقوله تعالى: ﴿ما نفدتْ كلماتُ اللّه﴾ جواب "لو" ،وفي الكلام إيجاز بالحذف دل عليه سياق الكلام،والتقدير:"ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر، وكتبت بتلك الأقلام،وبذلك المداد كلمات الله تعالى ما نفدت كلمات الله لعدم تناهيها، ونفدت تلك الأقلام وتلك المداد لتناهيها. وقد حذف ذلك من الكلام لدلالة السياق عليه، وهذا ما يسمى في البلاغة العربية بـــ "الإضمار على شريطة التفسير" وهو طريق معروف، ومذهب ظاهر، وشيء لا يعبأ به. . ومن لطيف ذلك و نادره قول البحتري[2].

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم ... كرما، ولم تهدم مآثر خالد

"الأصل لا محالة: لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني، ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة، وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب في حكم البلاغة أن لا ينطق بالمحذوف ولا يظهر إلى اللفظ، فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله، صرت إلى كلام غث، وإلى شيء يمجه السمع،

---

[1] البحر المحيط : ٧ / ١٨٧

[2] البحتري: أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي، ولد في منبج سنة ٢٠٦ هـ اتصل في شبابه بأبي تمام وانتقل إلى حمص، ثم إلى بغداد، مدح المتوكل، وكبار حاشيته.والبيت من شواهد دلائل الإعجاز: ١٦٣.والمثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر لابن الأثير ٢ / ٩٢ ت محمد محيي الدين عبد الحميد ط ، المكتبة العصرية – بيروت – ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م والإيضاح ٢ /١٥٥

وتعانقه النفس، وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام، وبعد التحريك له. أبدأ لطفا ونبلاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك[1]، وكذلك الحال في سياق الآية الكريمة فقد جاء الحذف فيها عظيم الفائدة، حسن الصنعة، ظاهر المعنى ما لا يوجد إلا في الأساليب البلاغية العالية.

والمراد بالكلمات في قوله ﴿ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾، كلمات علمه سبحانه وحكمته جل شانه وهو ما يقتضيه سبب النزول - كما سبق ذكره - ، وعلى هذا فإن إطلاق الكلمات على علم الله وحكمته مجاز مرسل لعلاقة السببية. حيث انه تعالى عبر بالسبب وهي الكلمات الدالة، وأراد المسبب، وهو بيان علم الله تعالى وحكمته..

وفي إيثار جمع القلة "كلمات" مبالغة في إثبات عدم النفاد لها، فإذا كان ما ذكرلا يفي بالقليل من علم الله وحكمته، فكيف بالكثير.

قال الزمخشري : فإن قلت : الكلمات جمع قلة، والموضع موضع التكثير لا التقليل ، فهلا قيل : كلم الله، قلت: معناه أن كلماته لا تفي بكتابتها البحار فكيف بكلمه[2]،

ثم ذيل هذا المعنى العقدي بجملة اسمية مؤكدة بحرف التوكيد "إن" قصداً إلى تأكيد مضمون هذا المعنى، وترسيخه في الأذهان وكأن الكلام مع جملة التذييل بمثابة الحكم المصحوب بالدليل وذلك في قوله معللا لما سبق من معان.﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فالعزيز: كامل القدرة، فيكون له مقدورات لا نهاية لها، وإلا لانتهت القدرة إلى حيث لا يصلح للإيجاد. والحكيم: كامل العلم، ففي علمه ما لها نهاية له، فتحقق أن البحر

---

[1] ينظر : دلائل الإعجاز : ١٦٣ - ١٦٤ بتصرف

[2] ينظر : الكشاف : ٣ / ٥٠٨

وأمثاله كثيراً لو كانوا مداداً لما نفد ما في علمه وحكمته ونفدت تلك البحار العظام. . وقيل: العزيز: من لا يعجزه شيء، والحكيم: من لا يخرج من علمه وحكمته شيء، ومثله لا تنفد كلماته وحكمته[1]،

ومن ثم فإن جملة التذييل في الآية الكريمة جاءت تعليلية أفاد علم الله تعالى وحكمته.

* *وعلى كل فإن الأسلوب البلاغي الذي سيقت به تلك المعاني العالية، والتي حملت من صيغ التأكيد والتوضيح ما يدل على قدرة الله الكاملة، وعلمه وحكمته غير المتناهين جاءت لتدل على أن مفهوم العدد "سبعة" في الآية، لم يقف معناه عند حد حصر أفراده في معدوده، وأن حكم ما بعده مناف ومناقض لما قبله. وإنما الغرض البلاغي في التعبير به هو قصد المبالغة غير المتناهية في كثرة الأبحر وعظمتها .ومع ذلك تنفذ هذه البحار المجتمعة لتكون مدادا فتنتهي ، ولا ينتهي علم الله وحكمته. وهذه المبالغة ليست من المبالغات التي لا حقيقة لها - تعالى - الله أن يكون ذلك في كلامه - ولكن: لما علم تبارك وتعالى أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم - تعالى - أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم .وأجل منقبة حصلوها وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم -تعالى- تنبيها تستثير به قلوبهم، وتنشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه وإلا فالأمر أجل وأعظم" ،[2]، ومثيل ذلك في أي

---

[1] ينظر: :التفسير الكبير: ٢٥/١٣٨، وتفسير الكشاف: ٣/٥٠٨، بتصرف

[2] ينظر: تفسير السعدي المسمى بتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١/٦٥٠ تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ط مؤسسة الرسالة، الأولى.

الذكر الحكيم كثير، كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] فأين مثل هذا النور الحسي القليل مهما كثر في وصفه، وبولغ في إدراكه بنور الله - تعالى - الذي أضاء الوجود وما فيه، وإنما جاء التمثيل من باب ضرب الأمثال قصداً لتقريب المعاني التي لا يطاق الوصول إليها إلى الإفهام حتى تستقر في القلوب وترسخ في الأذهان، وإلا فالأشجار وإن تضاعفت على ما ذكر - والبحار - لو امتدت أضعاف مضاعفة - ، فإنه يتصور نفادها، وانقضاؤها، لكونها مخلوقة، أما علم الله وحكمته فلا يتصور منه النفاد، لأنه لما علم يقيناً بأن الله - تعالى - باق فإن صفاته المتمثلة في علمه وحكمته باقية ببقاء ذاته تعالى.[2]

.....

<u>ومما هو داخل في هذا الباب قوله تعالى في بيان حال أصحاب الشمال:</u>

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ

---

(1) سورة النور : آية : ٣٥

(2) ينظر : الأمثال في القرآن الكريم : دكتور : الشريف منصور بن عون العبدلي ، ط : عالم المعرفة ، الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥م .

على طعام المسكين * فليس له اليوم هاهنا حميمٌ * ولا طعامٌ إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون*﴾ (١)

هذه الصورة البائسة توضح حال أصحاب الشمال يوم القيامة واقفين في حسرة مديدة، ونغمة يائسة، ولهجة بائسة، لما يراه أو ينقده جزاء ما اقترف من آثام، وما اجترح من سيئات عظام، فنال من الله ما يستحق بألفاظ موجعة، تبعث بالهول الهائل، والرعب القاتل، أمام الجلال الماثل في ذات الله تعالى، الآمر بالعقاب الشديد، والعذاب المقيم(٢)

والتعبير بالعدد في بيان جزاء هذه الطائفة في قوله: ﴿ثُمَّ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه﴾ يمكن أن يراد به ظاهر العدد المعروف.ويكون مقيدا لأفراد معدودة.ومبينا على سبيل التحديد مقدار هذه السلسلة من الطول.

ومعنى الذراع في اللغة: ما بين طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى. قال الليث: الذراع: اسم جامع في كل ما يسمى يدا من الروحانيين ذوي الأبدان (٣) .ومنه: التقدير بالذراع من اليد في القياس ومقدار الطول، فكانوا يقدرون بمقادير الأعضاء مثل الذراع، والأصبع، والأنملة.والقدم، وبالأبعاد التي بين الأعضاء مثل الشبر .والفتر .والرتب .والعتب .والبصم ، والخطوة* (٤)، والسلسلة:حلق متصلة ومنتظمة: يقال شيء مسلسل: أي متصل بعضه ببعض. وإلى هذا ذهب ابن عباس

---

(١) سورة الحاقة: آية : ٢٥ ـ ٣٧

(٢) التحرير والتنوير : ٢٩ / ١٣٨

(٣) لسان العرب : مادة : ذرع

(٤) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٩ / ١٣٨

فقال : سبعون ذراعا بذراع الملك، وقيل: كل ذراع سبعون باعاً، كل باع أبعد ما بين مكة والكوفة. وقال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هو﴾ [1]

**ويمكن أن يراد مفهوم العدد المبالغة في وصف السلسلة بالطول.

جاء في تفسير الفخر الرازي: وقيل إنه ليس الغرض في التقدير بهذا المقدار، بل الوصف بالطول كما قال "إن تستغفر لهم سبعين مرة" يريد مرات كثيرة[2] ، وهذا ما يلائم المعنى، ويقتضيه المقام، لأنها لما لم تقيد بمقياس معين و بالغ في وصفها بالطول ، وبدت للمخاطب كالمحس المشاهد والتأمت عنده صورتها المفزعة ، ومن ثم كان التخويف فيها أفظع، والإنذار منها أوقع ، والتهويل بها أشد ، وهذا يتناسب مع هول الموقف، وعظمة المقام، وشدة وقع الألفاظ التي عبر بها عن هذه المعاني بأفعال أمر أخاذة في قوله تعالى:﴿ خُذُوهُ . .فَغُلُّوهُ . .ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . .ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ فالتعبير عن سوء العاقبة جاء في صورة أفعال أمر على سبيل الطلب في أسلوب شديد أخاذ يدل على عظمة وجلال الآمر،وحقارة وسوء المنقلب لمن يفعل به مثل هذه المأمورات – فتصدير صورة العذاب بالفعل ﴿ خُذُوهُ ﴾ مع ما فيه من قوة في الأخذ، وشدة في التناول صدر من العلي الأعلى – جل جلاله – إلى الملائكة المكلفين بسوق أهل النار إلى مصيرهم المحتوم وهذا الفعل عند سماعه "يتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهذيل، ويبتدره المكلفون من كل جانب[3] ، وجملة ﴿ خُذُوهُ ﴾

---

(1) ينظر : معاتيح الغيب : ١٥ / ١١٠

(2) ينظر : مفاتيح الغيب : ١٥ / ١١٠

(3) ينظر : في ظلال القرآن: سيد قطب: ٦/٣٣٨٢ بتصرف

مقول لقول محذوف موقعه في موقع الحال من ضمير ﴿ يا ليتني لم أوتَ كتابيَهْ﴾ والتقدير :فيقول الله للزبانية ﴿ خذوهُ...﴾ الآية[1] كما أن التعبير بقوله" خُذُوهُ "فيه من الإذلال والمعانة لمن يقع عليه فعل الأخذ لأن الأخذ: الإمساك باليد في قوة، فكأنه -لسوء ما قدم- لا قيمة له ولا وزنا في هذا المقام. ثم تعلو درجة الإذلال و الإهانة، ويزداد الموقف شدة وهولا بإتباع هذا الفعل الأخاذ بالعقول والألباب بفعل آخر وهو قوله : ﴿ فغُلُّوهُ ﴾، والغل: جمع اليدين إلى عنقه بالأغلال، والعطف بين الفعلين بالفاء لإفادة الإسراع بوصفه في الأغلال عقيب أخذه وهذا من باب المبالغة في الإذلال واثبات المهانة لهم..

ثم ينتقل العقاب الواقع عليهم من العذاب المعنوي المتمثل في إذلالهم وأهانتهم إلى العقاب المادي المهين في قوله ﴿ ثُمَّ الْجحيمَ صلُّوهُ ﴾ وصلوه: مضاعف تضعيف تعديه: لأنى صلى بالنار معناه: أصابه حرقها، أو تدفأ بها، فإذا عذب قيل: أصلاه نارا، وصلاه نارا" ، والمعنى: "لا تصلوه إلا الجحيم، وهي النار العظيمة الشديدة التأجج لعظم ما أوتى به من معصية، وهي الكفر بالله العظيم . [2]

**"وثم" -هنا- لبيان الفرق بين الفعلين، وإن كانا من جنس واحد، وهو وقوع العذاب عليهم، وليست للترتيب مع التراخي -كما في معانيها-، وذلك لان ما تحمله جملة :﴿ ثمَّ الجحيم صلُّوهُ ﴾ تحمل من معاني الإذلال و الاهانة، وسوء العذاب ما هو أشد في التخويف والتهويل من قوله: ﴿ خذوهُ فغُلُّوهُ ﴾ ، فالأمران من جنس واحد، لكن

---

[1] ينظر : روح المعاني : ٣٠ / ٤٩ .

[2] ينظر : السابق نفسه

ما بعد "ثم" أعلى مرتبة في هذا الجنس وأبلغ مما قبلها، فليس بين الأمرين منافاة. وإنما بينهما تفاوت من جنس واحد. [1]

وهو من باب الترقي من أدنى إلى أعلى في العذاب ومن ذلك قوله تعالى:﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2] ،فإن "ثم" في الآية للترقي الرتبي ، فإن نسبة المحرف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحا، أشد شناعة من نفس التصرف والتأويل[3] ، وإن كان ما قبل "ثم" من جنس ما بعدها، وهو كذبهم على الله وافتراؤهم عليه، قد ضلوا وما كانوا مهتدين. ، وقيل: يمكن حملها على التراخي الزمني، بأن يصلي بعد أن يسلك، ويسلك بعد أن يؤخذ ويقل بمهلة بين هذه الأشياء.، وهذا القول فيه نظر: وذلك لأن التوعد بتوالي العذاب آكد وأفظع من التوعد بتفريقه ،أي مع التراخي الزمني، وهذا ما يطلبه المقام ومقتضي الحال ،

ـ وقدم المعمول على عامله في الجملتين: ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ والأصل : صلوه الجحيم، واسلكوه في سلسلة. لغرض التعجيل بوقوع المساءة عليهم ، وهذا يتناسب مع الغرض المسوق من الكلام وهو التخويف والترهيب مع لباسهم ثوب المذلة والاهانة لأصحاب الشمال.، وسلك السلسلة في هؤلاء معقول لأنه هو الأصل، "سَلْكُهُ فِي السِّلْسِلَةِ أَنْ تُلْوَى عَلَى جَسَدِهِ

---

(1) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٩ / ١٣٧

(2) سور البقرة : ٧٩

(3) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري . د / محمد أبو موسى: ١٩ط وهبة

حَتَّى تَلْتَفَّ عَلَيْهِ أَجْزَاؤُهَا وَهُوَ فِيمَا بَيْنَهَا مُزْهَقٌ مُضَيَّقٌ عَلَيْهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى حَرَكَةٍ [1] ، وفي الربط والإحكام مبالغة في التخويف والتحذير والتفخيم من هول هذا العذاب المهين، فكأنه لحقارته ومهانته عند الله تعالى، هو الذي يلتف حول السلسة لا العكس، والعذاب عليهم بهذه الحالة أشد، والمذلة والمهانة بهم ألصق . وقيل: هذا من باب القلب كما تقول العرب: أدخلت رأسي في القلنسوة، ، وإنما تدخل القلنسوة في الرأس، والخاتم في أصبعي، وإنما قيل ذلك لمعرفة السامعين معناه، وإنه لا يشكل على سامعه ما أراد قائله، وشبهه في كلام العرب كثير . " قَالَ الْفَرَّاءُ: الْمَعْنَى ثُمَّ اسْلُكُوا فِيهِ السِّلْسِلَةَ كَمَا يُقَالُ: أَدْخَلْتُ رَأْسِي فِي الْقَلَنْسُوَةِ وَأَدْخَلْتُهَا فِي رَأْسِي، وَيُقَالُ:الْخَاتَمُ لَا يَدْخُلُ فِي إِصْبَعِي، وَالْإِصْبَعُ هُوَ الَّذِي يَدْخُلُ فِي الْخَاتَمِ"[2] .

ثم بين العلة التي من أجلها كان هذا العقاب الأليم والعذاب المهين لتلك الطائفة الخاسرة فيقول : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿ وهو تعليل على طريق الاستئناف، وهو أبلغ في التأكيد، كأنه قيل، ما السبب الذي من أجله استحق هذا العذاب المهين، والعقاب الأليم فكان الجواب قوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿ ووصف ﴿اللهِ﴾ بـ ﴿العظيم ﴾ من باب الحكم المصحوب بالدليل، ففيه إيماء إلى مناسبة عظم العذاب لعظم الذنب، فإنه إذا كان الكفران والجحود بالعظيم، فكان الجزاء عظيماً جزاءً وفاقاً لما اقترفوا من ذنوب

---

[1] ينظر: الكشاف : ٤ / ٦٠٤

[2] ينظر: مفاتيح الغيب : ١٥/١١٦

واجترحوا من سيئات. وقد قيل : لا تنظر على صغر الذنب ولكن إلى عظم عصيت" .

وقيل الوصف للإشعار بأنه عز وجل المستحق بالعظمة فحسب، فمن نسبها على نفسه استحق أعظم العقوبات" [١].

وجملة ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ الواو فيها-عاطفة لتجمع بين الأمرين في العلة الموجبة للعذاب، والجامع بينهما كونهما من أقبح ما يوصف به الإنسان وهما "الكفر والبخل" "فإن أقبح العقائد الكفر بالله وأقبح الرذائل البخل وقسوة القلب" [٢].ولهذا خصهما بالذكر دون غيرها. ، كما أن الجملة الأولى: إشارة إلى فساد حال القوة العاقلة ، والجملة الثانية إشارة على فساد حال القوة العملية" [٣].فناسب العطف بينهما بالواو لوجود الجامع.

والصورتان المتقابلتان لفظاً ومعنى - صورة أصحاب اليمين، وصورة أصحاب الشمال- جاءت في مجملها في سياق التعبير بالماضي في قوله: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه...﴾. وقوله: ﴿ هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ وقوله:﴿وأما من أوتي كتابه بشماله..﴾ وقوله:﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم..﴾والتعبير بالماضي دون الاستقبال تحقيقا لوقوع

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري: ٢٣/٥٩٠ ت أحمد محمد شاكر ط مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري: ٢٣/٥٩٠ ت أحمد محمد شاكر ط مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب : ٣٠ / ١١٥

كلتا الصورتين وتثبيتا لهما. وتأكيدا على أن تلك المشاهد الغيبية واقعة لا ريب فيها ، أو أن الله -تعالى- أراد أن يعيش المخاطب ساعة الوقوف أمام الله للسؤال وكل قد نال من الله ما يستحق، فجاء بصيغة الماضي، وكأن الزمان قد انفلت كله ومضى وبعث الناس على الحشر والوقوف بين يدي الله للسؤال، وصحائفهم تتطاير عليهم، وكل منهم صدق على عمله، فيسعد أهل اليمين بأعمالهم، وتقع الحسرة والخذي على أهل الشمال جزاء ما اجترحوا الذنوب والآثام وبارزوا الله بالمعاصي، حتى إذا ما عاد المخاطب من هذا المشهد المهيب وعرف ما له، وما عليه اتبع منهج الفائزين، وابتعد عن منهج المغضوب عليهم من الله، الضالين طريق الهداية والغفران، وفي هذا ما لا يوجد في التعبير بأفعال المضارعة والاستقبال، وأبلغ للمخاطبين في حالتي الترغيب والترهيب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً *وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ [1]، فجاء بصيغة الماضي في الآخرين ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ...﴾و ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾.وكأن الزمان قد انفلت كله ومضى، ووقعت فيه الأحداث العظام، ورأى الناس أهوالها، ثم هو يعرضها عليهم ثانية قصة من الخبر، وحدثا من التاريخ وفي هذا ما فيه[2] ومثله في البيان النبوي قول النبي ﷺ -: « مَنْ جَاءَ يَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَيُقِيمُ الصَّلاَةَ وَيُؤْتِى الزَّكَاةَ وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ كَانَ لَهُ الْجَنَّةُ » [3]فقد أخذ النبي ﷺ بألفاظ الحديث

---

(1) سورة النبأ : ١٨ _ ٢٠

(2) ينظر : دلالات التراكيب د / محمد أبو موسى . القسم الثاني : ٢٥١ ط : وهبة

(3) سنن النسائي :كتاب:تحريم الدم ،باب:ذكر الكبائر من حديث أبي أيوب الأنصاري

المخاطبين إلى الدار الآخرة وكأنهم يشاهدونها رأي العين ثم يعود بهم إلى أرض الواقع ويعرضها عليهم، وفي هذا من الترغيب والترهيب ما لا يوجد في التعبير بالأفعال المضارعة الدالة على الاستقبال

ونفي الحض: هو نفي الحث على القيام بعمل الفعل، وهو مبالغة في الوصف بالذم من باب التعبير بالأدنى إشارة إلى الأعلى .

كما أن في تنوع الأفعال في هذا المشهد بين أفعال ماضية ﴿ مَنْ أُوتِيَ﴾،﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ ، ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ وأفعال مضارعة : ﴿ لَا يُؤْمِنُ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَحُضُّ﴾ ، وأفعال أمر ﴿ خُذُوهُ ، فَغُلُّوهُ . . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ . . ﴾ والغرض من هذا الالتفات بين الأفعال هو جذب المخاطب وانتباهه في جميع جزئيات المشهد مع اختلاف صوره وكثرتها ، حتى يعي الصورة ، ويقف على المتقابلين فيختار لنفسه ما في صلاح دنياه وآخرته ، ويبعد عن كل ما يفسد عليه أمر الدنيا والآخرة ، ونفي الحض على طعام المسكين يقتضي بطريق المفهوم عدم إطعام المسكين، لأن من لا يأمر غيره بالعمل لا يقوم به، فهو لا يطعم المسكين، ولا يأمر غيره بإطعامه وفي هذا مبالغة في الذم واستحقاق العذاب المهين، وقد صرح بذلك في قوله تعالى عن أهل سقر:﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ .قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[1] ، فقد جعل عدم الحض على طعام المسكين مبالغة في شح هذا الشخص عن المساكين بمال غيره،وكناية عن الشح عنهم بماله،كما جعل الحرص على إطعام الضيف كناية عن الكرم

[1] سورة المدثر : ٤٢ - ٤٣

.كما في قول زينب بنت الطثرية ترثي أخاها يزيد [١]

إِذَا نَزَلَ الْأَضْيَافُ كَانَ عَذَوَّرًا *** عَلَى الْحَيِّ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهُ

تزيد، إنه يحضر الحي ويستعجلهم على نصف القدور للأطناف حتى توضع قدور الحي على الأثافي، ويشرعوا في الطبخ، والعذور: الشكس الخلق إلا أن كناية ما في الآية حاصلة بطرق الأولوية بخلاف البيت.

{ وبعد } فمن خلال هذا العرض التحليلي البلاغي لأجزاء تلك الصورة البائسة لعذاب تلك الطائفة البائسة يوم القيامة، والتي حملت أحكاماً متفرعة، وألفاظاً موجعة قصداً للمبالغة في التخويف والتهويل طلباً للتهديد والوعيد من الوقوع في شراك هذه الطائفة الخاسرة، من خلال ذلك يتبين أن الأولى بالقبول هو كون العدد في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ من باب المبالغة في وصف السلسلة بالطول دون حد . ومرجع ذلك أمران : أولهما: أن الرأي القائل بمجي العدد على ظاهرة مقيدا لأفراده حاصرا الوصف في مفهوم عدده لا يحتاج في أدلته إلى نقل صحيح، ولذلك قال الحسن: "والله أعلم بأي ذراع هو"، وثانيهما: تلك الألفاظ الموجعة الناطقة بكل ما تحمله من أساليب التخويف والتهديد، وإظهار الإذلال والاهانة لتلك الطائفة اليائسة

---

[١] هي زينب بنت سلمة بن سمرة بن سلمة الخير الطثرية .. ، وأخوها يزيد بن سلمة بن الطثرية والطثرية أمهما ، وهي من " الطثر " حي من اليمن .. وكان يزيد جميلا وسيما شريفا كريما توفي سنة : ١٢٦هـ ، والبيت في البيان والتبيين للجاحظ : ١ / ٢١٦ تحقيق / عبد السلام محمد هارون ط ، دار الجيل - بيروت - لبنان ، و حماسة أبي تمام : ١ / ٤١٧ ط دار السعادة ١٣٣١هـ

البائسة الخاسرة، تدعو على المبالغة في الوصف لتلك السلسة بالطول قدراً لا يقف على كنهها حاد، ولا يصل إلى عدد أذرعها عاد حتى قيل إن جميع أهل النار يغلون في تلك السلسلة، "وإذا كان الجمع من الناس مقيدين بالسلسة الواحدة كان العذاب على كل واحد منهم بذلك السبب أشد، والمذلة والمهانة لهم أوقع[1].وعلى هذا فإن التعبير بالعدد "سبعين" في الآية الكريمة من باب المبالغة في وصف السلسة بالطول وليس من باب تخصيص الوصف بطول معين، حتى يكون الكلام مطابقاً لمقتضي الحال، وأنسب لما في الآية من مقام التهديد والوعيد. وإظهار المذلة والمهانة لتلك الفئة الضالة لطريق الهداية في الدنيا . الخاسرة البائسة من رحمة الله ومغفرته في الآخرة.

هذا وفي اختيار العدد "سبع" ومشتقاته في الأمثلة السابقة، للدلالة على المبالغة في الكثرة أو المبالغة في الوصف، والقرآن الكريم بذلك جار على أساليب العرب في كلامهم، ومعرفة ما كانت تفقهه من لغتها وتعنيه. ، فالعرب تطلق السبع والسبعين، والسبعمائة، ولا تريد مفهوم العدد وظاهره وإنما لقصد المبالغة في الوصف ، أو الكثرة في العدد ، أو بلوغ النهاية في الأمر . قال الزمخشري: "والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير[2]،والعرب تضع هذا العدد ومشتقاته موضع التضعيف والتكثير، وليس من حصر العدد في أفراد معدودة وتخصيصه به، فهو عندهم يعني الكمال وبلوغ الغاية.

فهذا العدد "سبع" ومشتقاته له عندهم شأن رفيع، تفطن له أهل اللسان، وعرفوا سر استعمالهم له في كثير من إطلاقاته على مسمياته، فنظروا إليه فوجدوا أنهم لا يسمون به إلا ما اكتمل عندهم معناه، فالسبع عندهم من

---

(1) ينظر : مفاتيح الغيب : ٣٠ / ١١٦

(2) ينظر تفسير الكشاف : ٢ / ٢٩٩

الحيوان ما تكاملت فيه القوى الحيوانية، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: هُوَ سُبَاعِيُّ الْبَدنِ،إِذَا كَانَ تَامَّ الْبَدنِ مكتملها، السُّبَاعِيُّ من الجمال : الْعَظِيم الطَّوِيل، ويقولون لأفعلن به سبعة للمبالغة فيما سيحل به ، ومن ثم استخدم العرب في كلامهم حين يريدون المبالغة في الوصف ، أو الكثرة في العدد أو بلوغ النهاية في الأمر ، فيقولون نصحتك سبعين مرة ، للمبالغة في تكرار فعل النصح ، ويقولون : لأفعلن به سبعة . للمبالغة فيما سيقع عليه جزاء هذا الوعيد .[1]

---

[1] ينظر : تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري الهروي : مادة (باب العين مع السين مع الباء)تحقيق : محمد عوض مرعب: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م ، ، ومعجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس تحقيق: عبد السلام محمد هارون ط: دار الفكر : ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م و لسان العرب : مادة : سبع .

المبحث الثاني

ذكر العدد لقصد التأكيد والتقرير

وقد يأتي العدد في الكلام ولا يراد به حصر أفراد معدوده فيه، أو المبالغة في الوصف أو التكثير، وإنما لغرض المبالغة في تأكيد المعنى وترسيخه في الأذهان طلبا لتحققه وتقريره ، وبيان أهميته لدى المخاطبين. ، ومن ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى في إثبات الوحدانية لله تعالى ونفي ما عداها:

﴿ وقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هو إِلهٌ واحدٌ فإيَّايَ فارْهَبُونِ﴾[1]،

المعنى: يقرر الله تعالى في هذا المقام أهم أسس العقيدة، وهو إثبات الوحدانية له - سبحانه - ونفيه عما عداه، فهو وحده لا شريك له، مالك كل شيء وخالقه.، والآية: نهي صريح من الله تعالى للناس بعدم اتخاذ آلهة متعددة وأمرهم بحصر معبودهم في إله واحد لا ند له ولا شريك،وهذا المعنى العقدي جاء في صورة أسلوب يحمل معاني التقرير والتوكيد،والبيان والتوضيح لأهميته فهو مفتاح العقيدة وأساسها، وصورة التوحيد وحقيقته.

ومعلوم أن الجمع بين العدد والمعدود يكون فيما وراء الإفراد والتثنية لبيان ذلك العدد فيقال:عندي دراهم خمسة،وأولاد ستة،وقرأت من الكتب سبعة،وذلك لأن المعدود لا يدل على عدده الخاص به مفهوما أو منطوقاً،فيحتاج الأمر معه إلى ذكر عدده ليوضحه ويقيد أفراد معدوده فيه ، أما صيغتا الأفراد والتثنية فإن المعدود فيها يدل على عدده مفهوما من صيغتي الأفراد والتثنية فيقال قرأت كتاباً، وعنده ولدان، واشتريت

---

(1) سورة : النحل : آية : ٥١

الكتاب بدرهمين ..وهكذا.فإذا جاء بعدهما العدد صراحة فلا يكون مقيداً أو مخصصاً لمعدوده ،أو قصيداً إلى قصر أفراده في عدده، وإنما يكون مجيئه لغرض بلاغي رمى إليه المتكلم من كلامه وهو تأكيد المعنى في نفوس المخاطبين وتقريره بداخلهم.

وعلى هذا فالعدد في قوله ﴿ لا تَتَخِذُوا إلهيْن اثْنَيْن ﴾ وقوله: ﴿ إنَّما هُو إلهٌ واحِدٌ﴾ لا يؤسس معنى جديداً أو مفهوما زائداً على أصل مدلول المعدود، وإنما جيء به لغرض التأكيد والتقرير للمعنى في نفوس المخاطبين. فذكر العدد ﴿ اثْنَيْن ﴾ جاء توكيداً لصيغة التثنية المفهومة من لفظ المثنى ﴿الهين ﴾ كما أن ذكر العدد ﴿واحِدٌ﴾ جاء توكيداً لصيغة الإفراد المفهوم من اللفظ الدال على الإفراد ﴿إله﴾ وبذلك يكون هذا المعنى العقدي قد وصل على المخاطب في صورتين:

أولهما: الدلالة الضمنية المفهومة من اللفظ المعدود الدال على التثنية والإفراد.

ثانيهما: الدلالة النصية. وهو ما يفهم صراحة من منطوق اللفظ الدال على العدد: تثنية وإفراداً. وهذا يجعل المعنى يصل إلى المخاطب في صورة واضحة جلية ويدخل في قلبه دخول المأنوس توضيحاً وتفسيراً، ويرسخ في الذهن تأكيدا وتقريراً، وقد قيل " عِلْمَانِ خيْرٌ مِنْ عِلْمٍ واحد" [1]. ومثله قوله تعالى : ﴿ فصِيَامُ ثَلاثَة

---

[1] هنا مثل معناه: لأن تضيف على علمك الأول علما حادثا خير من اكتفائك بمعرفتك. وأصله أن رجلا وابنه سلكا طريقا، فقال الرجل يا بني: سل لنا عن

أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [1]، وإنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عن ذلك، دلالة على أن مساق النهي هو الإثنينية ،وإنها منافية للإلوهية،كما أن وصف إله في قوله ﴿إِنَّما هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية، وأنها من لوازم الإلهية[2]

وإنما صوغ هذا التأكيد في الكلام "لأن الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: على الجنسية، والعدد المخصوص، فإذا أردت الدلالة على أن المعنى به منهما، والذي يساق إليه الحديث هو العدد، شفع بما يؤكده على القصد إليه، والعناية به، ألا ترى انك لو قلت: " إنما هُو إلهٌ " ولم تؤكده بواحد، لم يحسن، وخيل انك تثبت الإلهية لا الوحدانية" [3] . وهذا الأسلوب معروف من كلام العرب ، وجار على أساليبهم في الكلام ، أن يبين المعدود ويذكر عدده تأكيدا[4].وذلك من باب التكرير في الكلام طلبا للمبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك[5] وهو منهج مطرد في التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد، له دلالته -من غير

الطريق: فقال الولد: إني به عالم، فقال الرجل: يا بني: "علمان خير من علم واحد" فصارت مثلا. [ينظر: مجمع الأمثال للميداني: ٢٥٢/٢ تحقق محمد محي الدين عبد الحميد ط مصطفى البابي الحلبي، مصر.]

(1) سورة البقرة : آية : ١٩٦

(2) ينظر: تفسير أبي السعود: ١١٩/٥، وتفسير البيضاوي: ٤٠٣/٣.

(3) ينظر: تفسير الكشاف : ٢ / ٢٥٧

(4) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز : لابن عطية الأندلسي : ٣ / ٣٩٩ ، تحقيق :عبد السلام عبد الشافي محمد ط / دار الكتب العلمية لبنان ١٤١٣هـ ١٩٩٣ م

(5) ينظر: فتح القدير للشوكاني : ٣ / ١٦٨

شك- في تجليه قيمة هذه الحقيقة، وضخامتها التي تستدعي ألا توكل في أي جانب من جوانبها إلى المفهومات الضمنية، والمقتضيات اللازمة. وإنما ينص نصا منطوقا على كل جانب فيها، أو في دلالة هذه الطريقة على علم الله -سبحانه- بطبيعة الكائن الإنساني وحاجته في تقرير هذه الحقيقة الكبيرة وصيانتها في حسه وتصوره من أية شبهة أو غش، إلى التعبير الدقيق عنها على ذلك النحو، الذي يتجلى فيه القصد والعمد... ولله الحكمة البالغة... وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير. [1]، قال تعالى:﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾[2]. وقال تعالى :﴿ قُلْ إِنَّما أَنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[3].وقال تعالى:﴿قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[4].وقال تعالى :﴿ قُلْ إِنَّما أَنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾[5]

وقد ذهب فريق من المفسرين إلى أن العدد في الموضعين لم يأت لغرض التأكيد والتقرير فحسب،وإنما جيء لغرض آخر قصد من الكلام،وهو البيان والتوضيح والتفسير لما يحمله العدد من معنى غير مفهوم في المعدود.

---

(1) ينظر : تفسير في ظلال القرآن : سيد قطب : ٤ / ١٩٣٩ .

(2) سورة النحل: آية : ٢٢

(3) سورة الكهف: آية : ١١٠

(4) سورة الأنبياء : آية : ١٠٨

(5) سورة فصلت : آية : ٦

قال الألوسي: "المشهور أن "اثنين" وصف لإلهين "، وكذا "واحد" في قوله سبحانه " إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ " صفة الإلهية، وجيء بهما للإيضاح والتفسير لا للتأكيد وإن حصل،" بمعنى أن الصفة وقعت في الموضعين لبيان أن مساق النهي هو الإثنينية، كما أن من لوازم الإله كونه واحداً.[1]

*والأقرب عندي أن العدد في الموضعين يمكن حمله على كلا المذهبين معاً: التأكيد والتقرير لما فهم من ذكر العدد، والتفسير والبيان لما يحمله ذلك العدد من معنى"لأن الشيء إذا كان مستنكراً مستقبحاً، وأريد المبالغة في التنفير عنه، عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سببا لوقوف العقل على ما فيه من القبح وإذا عرف هذا القول "بوجود إلهين" قول مستقبح في العقول، ولهذا المعنى فإن أحداً من العقلاء لم يقل بوجود إلهين متساويين في الوجوب والقدم، وصفات الكمال، فقوله ﴿لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ المقصود من تكريره، تأكيدا للتنفير عنه وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح "[2]

كما أن المقصود من ذكر العدد، هو بيان وتفسير ما لم يفهم من المعدود، وهو التنبيه على حصول المنافاة والمضادة ببين الإلهية وبين الإثنية، وللدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية دون الإلهية، والتنبيه على أن الوحدة من لوازم الإلهية.[3]

---

(1) ينظر : تفسير : روح المعاني : ٧ / ٤٠١

(2) اللباب في علوم الكتاب : لابن عادل الدمشقي الحنبلي : ١٢ / ٧٨ تحقيق : الشيخ : عادل أحمد عبد الموجود ،و الشيخ : علي محمد معوض ط ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الأولى : ١٤١٩هـ - ١٩٩٨مـ

(3) ينظر : تفسير : أبي السعود : ٥ / /١١٩، وتفسير البيضاوي: ٣/٤٠٣.

وهو نفسه ما ذهب إليه أصحاب المذهب الأول ضمنا وإن اختلف كل منهم في بيان الغرض البلاغي من العدد لفظاً.

وذهب بعض المفسرين إلى أن في الكلام تقديما وتأخيرا، وأصل الكلام "لا تتخذوا اثنين الهين" على اعتبار أن "اثنين" مفعول أول، و "إلهَيْن" مفعول ثان، والمعنى على هذا المذهب: "أن الاثنين لا يكون كل واحد منهما إلها،ولكن اتخذوا إلها واحدا".[1]ومنه قوله:﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ،ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [2]،فهذه الآية من تقديم المفعول الأول لـــ "تتخذوا"، وعليه فلا يكون في الكلام تأكيد

وهذا المذهب -كما ذكر أكثر المفسرين- [3] به بعد، لما فيه من تأويل للكلام بالتقديم والتأخير، وما لا يحتاج إلى تأويل أولى بالمعنى مما يحتاج على تأويل، لا سيما وأن عدم الأخذ بالتأويل في هذه الآية. موافق للحال، مطابق لمقتضاها، وذلك لأن المقصد من الكلام المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك. والترهيب من الوقوع في شركه، ووقوف العقل على أن اتخاذ إلهين قبيح مستهجن.

وهذا ثابت من ظاهر الآية القائم على التكرار لقصد التأكيد والتقرير، غير ثابت على مذهب التأويل القائم على التقديم والتأخير.

هذا والمتأمل في سياق الآية الكريمة ، والوقوف عند نظمها ،ومدلول ألفاظها ، يجد ما بها من تأكيد على بيان هذا الأصل العقدي، وتركيز على الأمر بعباده الله وحده ونفيها عما سواه.

---

(1) ينظر : تفسير أبي السعود : ٥ / ١١٩ .

(2) سورة الإسراء : آية : ٢ – ٣

(3) ينظر في هذا :الكشاف:٢ / ٢٥٩ ، تفسير أبي السعود : ٥ / ١٢٠ ،فتح القدير للشوكاني : ٣ / ١٦٩

فقد بدأت الآية بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ ﴾ بذكر فعل القول وفاعله، وهذا على غير عادة الأسلوب القرآني في الحديث عن الترغيب والترهيب حيث أن المنهج القرآني- في الغالب الأعم-عند الحديث عن المأمورات والمنهيات يأتي في صورة الخطاب المباشر فيعبر عنه بفعل الأمر المباشر،والنهي المباشر،أو ذكرهما مسبوقاً بالنداء. [1] ، بيد أنه تعالى في هذه الآية أسند الفعل إلى لفظ الجلالة ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ للمبالغة في بيان أهمية هذا المعنى العقدي، والتركيز على إلوهية الله - تعالى - ووحدانيته مع أول جملة في الكلام حتى لا يترك للعقل مجالاً في التفكير أي الآلهة أحق بالاتخاذ والعبادة، فيعين – من تمام النعمة-المعبود الحق المختص بالعبادة،والمستحق بالخوف والرهبة لكونه موصوفاً بأوصاف الجلال والكمال،وذلك بإظهار فاعل القول،وتخصيصه بلفظ الجلالة.

قال أبو السعود: "وإظهار الفاعل، وتخصيص لفظ الجلالة بالذكر إشعار بأنه متعين الإلوهية، وإنما المنهي عنه هو الإشراك به لا أن المنهي

---

(1) فمثال فعل الأمر المباشر قوله تعالى " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين "البقرة:٤٣ قوله تعالى: وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل .هود : ١١٤. وقوله تعالى: "وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين(المنافقون ١٠) وقوله تعالى: " وجاهدوا في الله حق جهاده"الحج : ٧٨.ومثال ما جاء مسبوقا بالنداء قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون الحج: ٧٦ "يا أيها الذين أمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون "البقرة:٢٥٤ وقوله تعالى "يا أيها الذين أمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى" البقرة :٢٦٤ وقوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون" البقرة : ١٨٣ ، وغير ذلك كثير في آي الذكر الحكيم .

عنه مطلق اتخاذ إلهين بحيث يتحقق الانتهاء عنه برفض أيهما كان.أي قال الله تعالى لجميع المكلفين:﴿لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ (١)

أو أن الكلام سيق لحكاية حال ماضية: أي أن الله قد حكم أولا ألا يتخذ العبد آلهة متعددة إنما هو إله واحد وهذا من قبيل قوله تعالى: ﴿وإذْ أخذَ ربُّكَ منْ بني آدم منْ ظُهُورهمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأشْهدهُمْ على أنْفُسهمْ ألستُ بربِّكُمْ قالُوا بلى شهدْنا أنْ تقُولُوا يوْم القيامة إنّا كنّا عنْ هذا غافلين﴾ (٢)

وإنما آثر التعبير بهذه الطريقة لحمل المخاطب إلى الكلام حملاً، وينتقل به إلى فاعل القول الحقيقي الموصوف بصفات الكمال والجلال نقلاً، مبالغة في تقرير هذا المعنى العقدي، وتوكيده في النفوس، حتى إذا عاد المخاطب من هذا الحوار الإلهي الداعي إلى الإخلاص في العمل، وعدم اتخاذ آلهة متعددة، شمر عن ساعد الجد، وعمل على طهارة القلب من كل شائبة شرك أو رياء، ومثل هذا محمود في باب الترغيب والترهيب.

كما أن في التعبير بلفظ الجلالة في هذا الموضع من باب التحدي لمن يدعي تعدد الإلوهية ، فالله هو القائل أو الناهي عن التعدد فأين الآلهة الأخرى في هذا الحديث لترد على هذا النهي الصريح ،

وتتجلى بلاغة النظم القرآني في التعبير بالأخذ دون العبادة. في قوله – تعالى – ﴿ لا تتخذوا إلهين أثنين ﴾ لأن في الأخذ تحديد المأخوذ بحد ، والإحاطة به على أكمل وجه ، وهو محال في حق الإله المعبود ، كما أن في التعبير بالأخذ فيه تحقير للمأخوذ وبيان ضآلته ، وذلك لأن مادة أخذ لا تقع – في الغالب الأعم– إلا على مفعول لا يملك الإرادة في نفسه حال

---

(1) ينظر : تفسير أبي السعود : ٥ / ١١٩ .

(2) سورة الأعراف : آية : ١٧٢

وقوع الفعل ، كما أنه يدل على أنهم صنعوه بأنفسهم ، وتمكنوا من صنعتهم ، وطبعوها في أذهانهم ، وأمام أعينهم ليعبدوها ، وهو مناقض لمقام العبودية ، وتحقير لمعنى الإلوهية المزعومة .

قال الراغب:الاتخاذ:افتعال من الأخذ ويعد إلى مفعولين، ويجري مجرى الجعل[1] وعلى هذا يكون المعني: لا تجعلوا أولا تعبدوا،

وقال الشهاب: والأخذ أصل معناه التناول، ويكون بمعنى الإمساك، كالأخذ باللجام، والحطام، وبمعنى الجواز والتحصيل، وهذا هو المعنى الحقيقي، وما يقرب منه ثم إنه تجوز به عن معان آخر كالإحاطة والستر[2]. وفي البصائر: الاتخاذ يأتي بمعنى العبادة: وهو المراد هنا[3] وتلك المعاني واضحة جلية في أي الذكر الحكيم لا سيما عند الحديث عن النهي عن اتخاذ شركاء مع الله تعالى في القول والعمل ومنه قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ﴾[4]،وقوله:﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[5]،وقوله:﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ

---

(1) ينظر :مفردات غريب القرآن : للراغب الأصفهاني : ١٢تحقيق : محمد السيد كيلاني ، ط، دار المعرفة لبنان

(2) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي،المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي:١/٣٣٢ط: دار صادر - بيروت

(3) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : لمجد الدين الفيروز آبادي : ٢/ ٥٧ ، تحقيق: محمد علي النجار ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

(4) سورة التوبة : آية : ٣١

(5) سورة الأعراف : آية : ١٥٢

عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾[1] وقوله تعالى:﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾[2]. وقوله تعالى:﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون *لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾[3] وغير ذلك كثير في آي الذكر الحكيم ، ولأخذ في كل ما مضى من الآيات بمعنى الجعل والعبادة، وإنما عبر عنها بهذا الأسلوب ليدل على سلب إرادة المأخوذ ، فكأنه يتناول ويؤخذ بين الناس مقهورا عاجزا عن رد آخذه فلا يستطيع أن يجدي لعابده نفعا أو يدفع عنهم ضرا، فكيف بمن هذه حالة أن يكون ندا وشريكا لله رب العلمين، لا سيما أن القدرة والإرادة من الصفات الواجبة في حق الآلهة، وشرط في ذات المعبود . قال تعالى:﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون * أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾[4] وفي مثل هذا الأسلوب تقرير المعني وتأكيده في نفوس المخاطبين.

كما أن مجيء المنهي عنه ﴿إلهين﴾ في صورة النكرة للدلالة على تحقير المأخوذ وضآلته أمام جلال الله وعظمته ، وهذا ما نص عليه قوله تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾[5] .ففي

---

(1) سورة الكهف : آية : ١٥

(2) سورة مريم : آية : ٨١ – ٨٢

(3) سورة الأنبياء : آية : ٢١ – ٢٢

(4) سورة الأنبياء : آية : ٢٤

(5) سورة العنكبوت : آية : ٤٢

تمثل بيان ضعف آلهتهم الباطلة، وأنها لا تجدي لعابدها نفعاً، وتسجل على المشركين اعتمادهم في تدبير شئونهم على آلهة عاجزة لا تحقق لهم شيئا من طلباتهم وأغراضهم الهامة من جلب نفع أو دفع ضر ، وفيه عبرة وعظة لكل من أسند أمره إلى قوة غير قوة الله واعتمدوا في شأنهم على غير الله -تعالى-[1]

كما أن في تنكير ﴿إلهين﴾ -أيضا- لإفادة عموم النهي، حتى يدخل فيه كل شيء سوى الله تعالى، سواء عظم أو كان حقيراً، قوياً كان أو ضعيفا، لأنه لو قيس بإرادة الله التامة، وقدرته المطلقة، لبيان العجز، وظهر النقص، وكلاهما محال على المعبود ومن ثم تحقق المعنى، وتقرر النهي عن اتخاذ آلهة غير الله تعالى ليكون الحكم ذكر مصحوبا بالدليل اطلباً للتأكيد والتقرير.

ولما كانت جملة النهي ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ تحمل معنى النفي، والمراد نفي وجود آلهة متعددة أو شركاء مع الله تعالى.ومعلوم أنها إذا نفي شيء عن موصوف ثبت ضده لذلك الموصوف.ولما كان الأمر كذلك اتبعت جملة النهي بقوله: ﴿إنما هو إله واحد﴾ بإثبات صفة الوحدانية للمعبود الحق والذي يعود الضمير إليه وهو فاعل القول "لفظ الجلالة".

قال أبو حيان:"ولما نهى عن اتخاذ الإلهين واستلزم النهي عن اتخاذ آلهة أخرى تدل على أنه إله واحد كما قال ﴿وإلهكم إلهٌ واحدٌ﴾ [2]بأداة الحصر وبالتأكيد بالوحدة[3] .وفيه حصر الإله المعبود في كونه واحد

---

(1) ينظر : الأمثال في القرآن الكريم : ٢٧٤ -٢٧٨

(2) سورة البقرة: آية : ٦٣

(3) ينظر : تفسير البحر المحيط : ٥ / ٤٨٥

منفردا بالعبودية ليس له ند ولا شريك . قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ* وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [1] وإنما عبر عن هذا المعنى بأسلوب القصر لما فيه من قوة ودلالة على المقصود تساعد المخاطب على التركيز على المعنى والتأكيد على حقيقة ثبوته،ولما فيه أيضا من إيجاز في العبارة لكون جملة القصر تحمل معنى جملتين معا وهما: إثبات الصفة للموصوف، ونفيها عما عداه، وذلك في الكلام الواحد أو فيما هو كالكلام الواحد، ومن ثم فإنها –أي جملة القصر– تدخل ضمن التراكيب البلاغية الجيدة لما تحمله من قيمة فنية عالية..

يقول الإمام عبد القاهر : "وإنما [illegible] إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجها آخر، ثمَ رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت للذي جاء عليه حسنا وقبولا تعدمهما إذا أنت تركته إلى الثاني"[2] وفي اختيار "إنما" دون غيرها من طرق القصر –للدلالة على أن الحكم– وهو حصر الآلهة في إلـــه واحد من الأمور الظاهرة الواضحة التي لا يجهلها أحد،ولا يستطيع إنكارها، أو دفع صحتها منكر أو جاحد،ولما في الكون من أدلة شواهد تدل على أن المعبود واحد ، قال الشاعر : –

فواعجبا كيف يُعصى الإلهُ *** أمْ كيف يجحدُهُ الجاحدُ
ففي كلِّ شيْء آيـــــــــةٌ *** تدلُّ على أنَهُ واحــــدُ
ولله في كلِّ تحريكــــــة *** علينا وتسكينة شاهــدُ [3]

---

(1) سورة الإخلاص : آية : ١ – ٥

(2) دلائل الإعجاز : ٢٨٦

(3) ديوان أبي العتاهية : ١ / ٤٥

قال الإمام عبد القاهر : "اعلم أن موضوع "إنما" على أن تجيء لخبر لا يجعله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذا المنزلة"[1]وقال " تفسير ذلك أنك تقول للرجل:"إنما هو أخوك"،وإنما هو صاحبك القديم "لا تقول له لمن يجهل ذلك ويدفع صحته،ولكن لمن يعلمه ويقر به إلا أنك تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب [2]" ومثله قوله:

إنما أنت والد، والأبُ القا طعُ أحنى مِنْ واصلِ الأولاد[3]

لم يرد أن يعلم كافورا أنه والد ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام ولكنه أراد أن يذكره منه بالأمر المعلوم ليبني عليه استدعاء ما يوجبه كونه بمنزلة الوالد[4] ، ومنه في التنزيل قوله تعالى ﴿إنَّما يستَجيبُ الذِين يسمَعُون ﴾[5]وقوله :﴿إنَّما تُنْذرُ من اتَّبعَ الذكرَ وخشِي الرَّحمَن بالْغيب.﴾[6]:وقوله:﴿ إنَّما أنتَ مُنْذرُ منْ يخْشَاها ﴾[7] ، وكل ذلك تذكير بأمر ثابت معلوم ، وذلك أن كل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا لمن يسمع ويعقل ما يقال له ويدعى إليه ، وإن من لم يسمع ولا يعقل لم يستجب ، وكذلك معلوم أن الإنذار إنما يكون إنذارا ويكون له تأثير إذا كان مع من يؤمن بالله ويخشاه ويصدق بالبعث والساعة ، فأما الكافر الجاهل فالإنذار وترك الإنذار معه واحد فهذا مثال ما الخبر فيه خبر بأمر

---

(1) دلائل الإعجاز : ٣٣٠

(2) السابق نفسه

(3) قاله المتنبي في كافور ،والبيت : من شواهد دلائل الإعجاز:٣٣٠، والإيضاح:٢/٣٧

(4) دلائل الإعجاز : ٣٣٠

(5) سورة : الأنعام : ٣٦

(6) سورة : يس : ١١

(7) سورة : النازعات : ٤٥

يعلمه المخاطب ولا ينكره بحال[1] . والضمير من قوله ﴿ إنما هو إلهٌ واحدٌ ﴾ عائد على لفظ الجلالة ، فاعل القول الظاهر في قوله :﴿ وقال اللهُ لا تتخذوا.﴾ والمعنى : وقال الله إنما الله إله واحد .

وحصر صفة الوحدانية في علم الجلالة الله بالنظر إلى مسمى ذلك العلم مساو لمسمى اله،إذ الإله منحصر في مسمي ذلك العلم[2] وهو من قصر الموصوف على الصفة أي أن الله تعالى مختص بصفة التوحيد كما أنه خص نفسه بصفة الإلوهية وهذا القصر من قبيل قصر القلب؛ لإبطال صفة التعدد النهي عنها في قوله تعالى : ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ وجملة ﴿ إنما هو إلهٌ واحدٌ﴾ ، يمكن أن تكون بيان لجملة النهي ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ فالجملة مقولة لفعل ﴿ وقال اللهُ ﴾ لان عطف البيان تابع للمبين كموقع الجملة الثانية ، وذلك مثل قول القائل

أقول لهُ ارحلْ لا تقيمن عندنا ***وإلّا فكنْ في السرّ والجهر مسلما

ومعناهُ إن لم ترحل فكن على ما يكون عليه المسلم من استواء الحالين في السهر والجهر ،والشاهد فيه كون الجملتين بينهما كمال الاتصال لكونه الثانية أوفى بتأدية المراد من الأولى فنزلت منزلة بدل الاشتمال فلم تعطف عليها وهما ههنا قوله "ارحل" وقوله لا تقيمن عندنا لأن في قوله ارحل كمال إظهار الكراهة لإقامة المخاطب وقوله "لا تقيمن عندنا" أو في بتأدية المراد لدلالته على إظهار الكراهة لإقامته بالمطابقة مع

---

(1) دلائل الإعجاز : ٣٣٠- ٣٣١

(2) ينظر : التحرير والتنوير : ١٤ / ١٧٣ – ١٧٤

تأكيد الحاصل من اللفظين[1]،وعليه:فإن بين الجملتين في الآية كمال اتصال ولذلك فصلت"،وبذلك أفيد بالمنطوق ما أفيد قبل بدلالة الاقتضاء[2]

والغرض من مجيء الكلام على هذه الصورة هو القصد من التوضيح والبيان طلبا لتقرير المعنى وتأكيده في النفوس.

ويجوز أن تكون جملة ﴿ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ﴾ معترضة واقعة تعليلاً لجملة النهي: أي: نهى الله عن اتخاذ إلهين لأن الله واحد، لأي والله هو مسمى إله، فاتخاذ إلهين اثنين- أو أكثر- قلب لحقيقة الإلهية[3]..

ولما كان أسلوب الغيبة لا يعين الإله الواحد المعبود التفت إلى أسلوب التكلم في قوله:﴿ فإياي فارهبون﴾ نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحاً بالمقصود،فكأنه قال:فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غيري ، قال أبو السعود: ﴿فإياي فارهبون﴾ التفات من الغيب إلى التكلم لتربية المهابة، وإلقاء الرهبة في القلوب ولذلك قدم وكرر الفعل: أي: إن كنتم راهبون شيئا فإياي ارهبوا فارهبوا لا غير فإني ذلك الواحد الذي يسجد له ما في السماوات والأرض[4]

وفي روح المعاني[5]: فيه التفات من الغيبة إلى التكلم على مذهب الجمهور، والنكتة فيه- بعد النكتة العامة- أعني الإيقاظ ، وتطرية

---

(1) ينظر :معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لأبي الفتح العباسي : ١/١٧٨ ت /محمد محيي الدين عبد الحميد، ط عالم الكتب بيروت، والبيت من الطويل وهو بلا عزو فيه ، و الإيضاح:٣ / ١١٢، ١١٣ والتبيان في علم المعاني والبديع والبيان للطيبي : ١٣٩

(2) التحرير والتنوير : ١٤ / ١٧٣

(3) السابق نفسه

(4) ينظر : تفسير أبي السعود : ٥ / ١٩

(5) ينظر : روح المعاني : ١٤ / ١٦٣

للإصغاء- المبالغة في التخويف والترهيب. فإن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب لا سيما بعد وصفه بالوحدة والإلوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام وإنما جاء الكلام في صورة الالتفات من الغيبة للتكلم لمناسبة انتقال الكلام من تقرير دليل وحدانية الله على وجه كلي إلى تعيين هذا الواحد أنه الله منزل القرآن تحقيقا لتقرير العقيدة الأصلية[1]

والاقتصار على الأمر بالرهبة. وقصرها على كونها لله يفهم منه الأمر بقصر الرغبة عليه لدلالة قصر الرهبة على اعتقاد قصر القدرة التامة عليه تعالى[2]

[وبعـــد] هذا العرض التحليلي لأسلوب الآية الكريمة نجد أن جميع تراكيبها قائمة على المبالغة والتأكيد والتقرير للمعنى العقدي التي جاءت من أجله الآية الكريمة، ومن ثم اتضح صحة من ذهب إلى أن العدد في الموضعين لم يأت لحصر العدد في أفراد معدوده، وإنما جيء به لغرض بلاغي رمى إليه، وطلبه المقام، من خلال الأسلوب القرآني المعجز، وهو المبالغة في إثبات صفة الوحدانية لله تعالى، والتركيز والتأكيد على الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والوقوف على قبح واستهجان عقل من يتخذ مع الله آلهة أخرى لا تسمع ولا تبصر ولا تغني من الله شيئا.

****

---

(1) التحرير والتنوير : ١٤ / ١٧٤

(2) السابق نفسه

ومما هو داخل في هذا الباب قوله تعالى في بيان صورة تمام الحج والعمرة لله :

﴿ وأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[1]

المعنى: حقيقةُ الْإِتْمام للشَّيْء اسْتِيفاؤُهُ بجميع أجْزائه وشُرُوطه، وحفْظُهُ منْ مُفْسداته ومنْقصاته[2] والآية الكريمة في مجملها وصف لما يكون عليه تمام ركن من أركان الإسلام الخمسة ، وباب من أبواب التشريع السماوي ، الذي يحتاج فيه العبد إلى التمام ويبغي في عمله الكمال حتى يتحقق فيه شرط القبول والإثابة من الله رب العالمين،وهو باب الحج والعمرة،لاسيما أن الآية قد بدأت بفعل أمر صريح بطلب التمام في العبادة بقوله ﴿ وأتمُّوا الْحجَّ والْعُمْرة للَّه ﴾،وذلك الأمر بالتمام في هذا الركن العظيم يحتاج إلى نوع من التوضيح والبيان لجزئياته،يستطيع معه المسلم إلى الوصول إلى الغاية المرجوة، خاصة وأن كل عمل بشر قد يعتريه النقص أو يشوبه عدم التمام،مما يعجز معه المرء بلوغ الكمال،إما لعارض داخلي كمرض وغيره،أو حابس خارجي كخوف عدو وغيره ،ومن ثم رخص الله تعالى من تمام النعمة على عباده ما استيسر

---

(1) سورة البقرة : اية : ١٩٦

(2) ينظر : أحكام القرآن لابن العربي :١/٢٢١ط دار الكتب العلمية – بيروت

من الهدي بعد البرء من المرض،أو الأمن من العدو،أو رفع عنه المانع ثم زادت نعمة الله ــ تعالى ــ ، وعظم فضله برخصة أخرى جاءت عقيب الرخصة الأولى ، وهي حال التمتع " بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ " فعليه دم التمتع في الحج ، سواء بقرة ، أو شاة ، أو بعير ، ثم زادت النعمة وعظم الفضل مرة أخرى برخصة متفرعة من الرخصة الأولى وهي قوله ــ تعالى ــ : " فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ" رحمة بالمؤمنين ، وتيسيرا لهم أعمالهم ، وعباداتهم ، ومناسكهم لربهم .. فكثر خير الله وطاب .

وموطن الشاهد من الآية قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ . والتمتع بالعمرة إلى الحج : أن يحرم الحاج بالعمرة في أشهر الحج . ويفرغ منها بالتحلل ، فإن لم يحرم بها في أشهر الحج لم يكن متمتعا ، ويشترط أن يحج في عامه لكون ظاهر الآية يقتضي الموالاة بينهما . ويجب على المتمتع بالعمرة هدي ، لقوله تعالى ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ وهو هدي عبادة لا هدي جبر .. ومن عجز عن الهدي في الحرم: إما لعدم وجوده أصلا ، أو لعجزه عن ثمنه، أو وجده يباع بأكثر من ثمن المثل، أو كان محتاجا إلى ثمنه، ففي كل هذه الأحوال يجب عليه أن يصوم بدل الهدي عشرة من أيام: ثلاثة في الحج وسبعة إذا

رجع إلى وطنه..هذا لغير أهل مكة أما أهلها فلا يجب عليهم هدي[1]

والعدد﴿عشرةٌ﴾ في قوله تعالى:﴿تلك عشرةٌ كاملةٌ﴾ لم يكن المعول من ذكره فهم أن المقصود هذا العدد،وبيان قيد أفراد جنسه في معدودد لا يتعداه إلى غيره ، فهو ليس بجديد،ومعلوم من حاصل جمع العددين معا في قوله تعالى:﴿فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحجِّ وسبعةٍ إذا رجعتُمْ﴾وإنما جاء ذكره لأغراض بلاغية متعددة رمى إليها في كلام رب العالمين،وهو تقوية الأسلوب،وتأكيد الكلام،وتوفير العناية بالمعنى ،وذلك بذكر العدد على جهة الإجمال بعد ذكره مفصلا،قصدا للتأكيد والتقرير لنفس المعنى في ذهن المكلفين بالحكم الشرعي المعنيين بالخطاب من رب العباد ، لاسيما أن العرب ليسوا أهل الحساب،وكانت تشتد الحاجة لديهم في مثل هذه المعاني التكليفية الشرعية إلى مزيد فهم ، وفضل شرح ، خاصة مع الأمور التي يحتاج معها إلى الاهتمام بالمعنى ، والتركيز عليه لكونه حاملا بيان نوع من أهم العبادات الفعلية التي يتقرب بها العبد إلى خالقه ــ سبحانه ــ حتى تأتي تلك العبادة تامة كاملة ، وصالحة للقبول امتثالا للأمر الوارد في صدر الآية في قوله:﴿وأَتِمُّوا الْحَجَّ والْعُمْرَةَ للَّه﴾

قال الرازي : " والْفائدةُ فيه ــ أي التوكيد في الآية ــ أَنَّ الْكَلامَ الَّذي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْعِبارَاتِ الْكَثيرةِ ويُعْرَفُ بالصِّفاتِ الْكَثيرَةِ، أَبْعَدُ عنِ السَّهْوِ والنِّسْيانِ من الْكَلامِ الَّذي يُعبرُ عَنْهُ بِالْعِبارةِ الواحدةِ، فالتعبير بالعباراتِ الْكَثيرَةِ يَدُلُّ عَلى كَوْنِه في نَفْسِه مُشْتَمِلًا عَلى مَصالِحَ كَثيرَةٍ ولَا يَجُوزُ

---

[1] ، ينظر الفقه على المذاهب الأربعة : للجزيري ١/ ٦٢٠ ط/ دار الكتب العلمية، بيروت لبنان : الثانية، ١٤٢٤ هـ ــ ٢٠٠٣ م

الْإِخْلَالُ بِهَا، أَمَّا مَا عُبِّرَ عَنْهُ بِعِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّهُ لَا يُعْلَمُ مِنْهُ كَوْنُهُ مَصْلَحَةً مُهِمَّةً لَا يَجُوزُ الْإِخْلَالُ بِهَا، وَإِذَا كَانَ التَّوْكِيدُ مُشْتَمِلًا عَلَى هَذِهِ الْحِكْمَةِ كَانَ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ رِعَايَةَ الْعَدَدِ فِي هَذَا الصَّوْمِ مِنَ الْمُهِمَّاتِ الَّتِي لَا يَجُوزُ إِهْمَالُهَا أَلْبَتَّةَ" [1]

والتوكيد بهذه الصورة طريق مشهور في كلام العرب وكثير الوقوع في أساليبهم،وإِنَّمَا تَفْعَلُ ذَلِكَ الْعَرَبُ لِقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ بِالْحِسَابِ،وَوَرد ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَشْعَارِهِمْ،ومنه قول الشاعر : [2]

ثَلَاثٌ وَاثْنَتَانِ وَهُنَّ خَمْسٌ *** وسادسةٌ تميلُ إِلى شمامِ

وقول الشاعر : [3]

توهمتُ آياتٍ لها فعرفتُها *** لستِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

وقول الشاعر : [4]

ثلاثٌ بالغداةِ فهي حسبي *** وستٌّ حين يدركني العشاءُ

فذلك تسعةٌ في اليومِ ريِّي *** وشربُ المرءِ فوقَ الرّيِّ داءُ

والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وطريقة أساليبهم في التعبير عن الأشياء ، وهم يكررون طلبا للتأكيد والتقرير في نفوس المخاطبين .

---

[1] ينظر : مفاتيح الغيب : ٣/ ١٧٠

[2] البيت منسوب للفرزدق وهو من شواهد : الأغاني لأبي فرج الأصفهاني : ٣٧٥/٢١ تحقيق: سمير جابر ط / دار الفكر بيروت لبنان ، الثانية ، وذكره ان قتيبة في ترجمته للفرزدق في الشعر والشعراء : ٤٧٣/١ ، و عيون الأخبار لابن قتيبة :٣٢/٢ ، ١٠٥/٤ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨هـ

[3] البيت للنابغة الذبياني وهو من شواهد : "البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ" : ١٤٢ تحقيق أحمد أحمد بدوي وغيره ط / الجماهيرية العربية المتحدة ،ومعاهد التنصيص: ١/ ٣٣٠

[4] البيتان منسوبان للأعشى في تفسير القرطبي : ٤٠٣/٢،والبحر المحيط :٢٦٨/٢،وفتح القدير :٢٢٧/١،والتحرير والتنوير: ٢٢٨/٢ .

كما أن في ذكر العدد " عشرة " دفع توهم بأن المقصود بـ " الواو" في الآية بمعنى"أو"التي للتخيير فيتوهم بأن الأمر بالصيام الثلاثة التي في الحج،أو السبعة التي بعد الرجوع إلى أهله وبلده،وأن صيام أحد الخيارين يجزئ عن صيام الأخر،كما في قوله تعالى:﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾[1]والمعنى : فانكحوا مثنى أو ثلاث أو رباع ، وكما في قولهم : جالس الحسن وابن سيرين ، والمعنى : جالس هذا أو هذا يكفيك علم أحدهما عن الآخر ، وعليه فذكر العدد " عشرةً " دفعا لهذا التوهم وإزالته من الوقوع في الذهن .

قال الألوسي : ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ الإشارة إلى- الثلاثة، والسبعة- ومميز العدد محذوف أي «أيام» وإثبات- التاء- في العدد مع حذف المميز أحسن الاستعمالين ، وفائدة : الفذلكة[2] أن لا يتوهم أن- الواو- بمعنى أو التخييرية " .

كما أن في ذكر العدد " عشرةً " دفعا لتوهم التداخل ، فيظن أن الثلاثة داخلة في السبعة ، متممة لها غير منفصلة عنها ، فقوله : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أن يكون الواجب بعد الرجوع أن يكمل سبعة أيام ، على أنه يحسب من هذه

---

(1) سورة النساء: آية : ٣

(2) لفظ " فذلكة " كلمة مولدة لم تسمع من كلام العرب غلب إطلاقها على خلاصة جمع الأعداد ،وهي لفظة استخدمها جل المفسرين عند تفسيرهم هذه الآية،وهي مصطلح فني معناه:إجمـ المعنى في عبارة موجزة بعد بسطه في عبارة طويلة ، قصدا للتأكيد والمساعدة على الحفظ لبيان أهمية المعنى المذكور والتركيز عليه "ينظر:التحرير والتنوير:٢/٢١٦ " .

السبعة تلك الثلاثة التي في الحج المتقدمة ، فيكون الباقي عليه بعد العودة أربعة أيام فقط ،

كما يحتمل ــ أيضا ــ من هذا الكلام أن يكون الواجب بعد الرجوع سبعة سوى تلك الثلاثة المتقدمة ، فهذا الكلام يحتمل هذين الوجهين ، فإذا قال بعده ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ زال هذا الإشكال ، ودفع التوهم والتداخل الذي يمكن وقوعه في الذهن ،وبين أن الواجب بعد الرجوع صيام سبعة سوى الثلاثة المتقدمة [1] ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[2] ، لَوْ لَمْ يُفَسِّرْ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ بِأَنَّ مَعْنَاهُ فِي تَتِمَّةِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ . لَكَانَ الْمَعْنَى أَنَّهُ – تَعَالَى – خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ، لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى:﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ إِذَا فُسِّرَ بِأَنَّهَا أَرْبَعَةٌ كَامِلَةٌ ثُمَّ جُمِعَتْ مَعَ الْيَوْمَيْنِ اللَّذَيْنِ خُلِقَتْ فِيهِمَا الْأَرْضُ الْمَذْكُورِينَ فِي قَوْلِهِ:﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾،وَالْيَوْمَيْنِ اللَّذَيْنِ خُلِقَتْ فِيهِمَا السَّمَاوَاتُ الْمَذْكُورِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ لَكَانَ الْمَجْمُوعُ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ، وَذَلِكَ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَالنُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ مُصَرِّحَةٌ بِأَنَّهَا سِتَّةُ أَيَّامٍ، فَعُلِمَ بِذَلِكَ صِحَّةُ التَّفْسِيرِ

---

[1] ينظر : مفاتيح الغيب : ٣ /١٧١

[2] سورة فصلت : آية : ٩ – ١١

الذي ذكرنا،وصحة دلالة الآيات القرآنية عليه.[1] ومن ثم فإن ذكر العدد " عشرة " أزال هذا التوهم ، وبعد عن التداخل ، وأكد على أن صيام كلا العددين مقصودان بالحكم كل على حدة ،

كما أن في هذا التتميم البعد بالكلام عن مواطن التصحيف الخطي والسمعي في اللفظ ، لأن لفظة "سَبْعَة" تشبه في الخط لفظة " تسعة " ، فيشتبه الأمر على المخاطبين ، فناسب الإتيان بالعدد لدفع هذا التصحيف المحتمل الوقوع ، ومثيل ذلك كثيرا في لغة العرب وأساليبهم ، ومنه قول النبي ﷺ في بيان أسماء الله الحسنى : «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» [2] فالحكمة في قوله ﷺ : " مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا " بعد قوله ﷺ : " إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا " أن يتقرر ذلك في نفس السامع جمعا بين جهتي الإجمال والتفصيل ،أو دفعا للتصحيف الخطي والسمعي[3] والأحكام التشريعية ينبغي أن تصل إلى المكلفين واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض ،

كما أن في ذكر العدد ﴿ عَشَرَةٌ ﴾ إزالة التوهم ـ أيضا ـ بأن المقصود من العدد " سبعة " في قوله تعالى : ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ المبالغة في العدد لا المفهوم العددي الظاهر في الكلام ،لأن العرب تطلق السبع والسبعين والسبعمائة ولا تقصد الأعداد بأعينها ،وإنما لقصد المبالغة أو

---

(1) ينظر : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ : محمد الأمين الشنقيطي :٧/٧١ ط/ دار الحديث القاهرة . الأولى ، هـ١٤٢٦- ٢٠٠٦م ،

(2) صحيح البخاري ـ كتاب الدعوات - باب لله - عز وجل - مائة اسم غير واحدة حديث رقم: ٦٤١٠ من حديث أبي هريرة ،

(3) ينظر فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني : ١٢ / ٥٢١ تحقيق : عبد العزيز بن باز ط ، دار الفكر بيروت لبنان ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦ م .

التكثير ـ كما سبق بيانه في المبحث الأول من البحث وذكر العدد "عَشَرَةٌ" أزال هذا التوهم ، وبعد بالكلام عن التأويل غير المراد في هذا المقام .

هذا . وقد أصاب الأئمة والمفسرون في الإشارة إلى معنى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ودفع تلك التوهمات المتعددة والتي يمكن أن تقع في خلد المخاطبين أو تكون لهم مظان بداخلهم مما يذهب بالكلام بالمعنى إلى غير مراد الحق من الخلق .

ومما زاد المعنى بلاغة والكلام تأكيدا وصف العشرة بكونها ﴿ كَامِلَةٌ﴾ وهذا الوصف يمكن إدخاله في باب الوصف غير المقيد لموصوفه ، لأنه لا يظن ظان أن العشرة ـ مثلا ـ تكون تسعة أو ثمانية ، وعليه فإن الوصف لمك يؤسس معنى جديدا في الكلام ، وإنما ذكر لغرض المبالغة في التأكيد والتقرير طلبا للتركيز على المعنى لبيان أهميته .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الملحدين والمستشرقين قد طعنوا ـ لعنهم الله وأخزاهم ـ على في هذه الآية ، وزعموا ـ جهلا بغير حق ـ أنه يأتي في الكلام بتوضيح الواضح الذي لا يحتاج إلى توضيح في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ وقالوا : إن من المعلوم بالضرورة الحسابية أن الثلاثة والسبعة جمعهما : " عشرةٌ " فذكره يكون إيضاحا للواضح ،كما أن قوله تعالى:﴿كَامِلَةٌ﴾يوهم بوجود"عَشَرَةٌ"غير كاملة،وذلك محال،وعدّو ا ذلك من قبيل الإطناب المخل الذي لا يحمل فائدة [1] .

---

[1] ينظر : ينظر : كتاب :حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين ، الشبهة " التاسعة والعشرون " بعنوان " الإتيان بتوضيح الواضح ، الرد على الشبهة : د/ عبد العظيم المطعني ، هامش : ٢٣٨ ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م

وزعمهم هذا جاء عن جهل بطبيعة العرب وطرقهم في التعبير عن المعاني ، وأساليب كلامهم كما مر ذكره في بيان تقييد الكلام بالعدد عشرة والأسرار البلاغية التي رمي إليها من الذكر .

وأما طعنهم في الوصف ـ كما زعموا ـ فهذا ناتج عن عدم فقههم أن الكلام قائم على حال المخاطب وقت الكلام ، وهو أنه " لما كان الصيام بديلا عن الهدي وأنَّ الْمُعْتَاد أَنْ يَكُونَ الْبَدَلُ أَضْعَف حالا من المبدل كما في التيمم مَعَ الْمَاءِ ، فَاللَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّ هَذَا الْبَدَلَ لَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ هُوَ كَامِلٌ فِي كَوْنِه قَائِمًا مَقَامَ الْمُبْدَلِ لِيَكُونَ الْفَاقِدُ لِلْهَدْيِ الْمُتَحَمِّلُ لِكُلْفَةِ الصَّوْمِ سَاكِنَ النَّفْسِ إِلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ الْكَامِلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَذِكْرُ الْعَشَرَةِ إِنَّمَا هُوَ لِصِحَّةِ التَّوَصُّلِ بِهِ إِلَى قَوْلِهِ: كَامِلَةٌ كَأَنَّهُ لَوْ قَالَ: تِلْكَ كَامِلَةٌ، جَوَّزَ أَنْ يُرَادَ بِهِ الثَّلَاثَةُ الْمُفْرَدَةُ عَنِ السَّبْعَةِ، أَوِ السَّبْعَةُ الْمُفْرَدَةُ عَنِ الثَّلَاثَةِ، فَلَا بُدَّ فِي هَذَا مِنْ ذِكْرِ الْعَشَرَةِ . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ: كَامِلَةٌ يَحْتَمِلُ بَيَانَ الْكَمَالِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهَا كَامِلَةٌ فِي الْبَدَلِ عَنِ الْهَدْيِ قَائِمَةٌ مَقَامَهُ . وَثَانِيهَا: أَنَّهَا كَامِلَةٌ فِي أَنَّ ثَوَابَ صَاحِبِهِ كَامِلٌ مِثْلُ ثَوَابِ مَنْ يَأْتِي بِالْهَدْيِ مِنَ الْقَادِرِينَ عَلَيْهِ .وَثَالِثُهَا: أَنَّهَا كَامِلَةٌ فِي أَنَّ حَجَّ الْمُتَمَتِّعِ إِذَا أَتَى بِهَذَا الصِّيَامِ يَكُونُ كَامِلًا، مِثْلَ حَجِّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهَذَا التَّمَتُّعِ. [1] وقيل : إنها صفة مؤكدة تفيد زيادة التوصية بصيامها ، وأن لا يتهاون بها ، ولا ينقص من عددها كأنه قال : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ فراعوا كمالها ولا تنقصوها . وقيل : إنها صفة مبينة كمال العشرة ، فهي عدد كمل فيه خواص الأعداد وذلك "لأَنَّ مَرَاتِبَ الْأَعْدَادِ أَرْبَعَةٌ: آحَادٌ، وَعَشَرَاتٌ، وَمِئِينَ، وَأُلُوفٌ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُرَكَّبًا أَوْ

---

(1) ـ مفاتيح الغيب : ١ / ١٦٩٠

مَكْسُورًا، وكَوْنُ الْعَشَرَةُ عَدَدًا مَوْصُوفًا بِالْكَمَالِ بِهَذَا التَّفْسِيرِ أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَى التَّعْرِيفِ، فَصَارَ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: إِنَّمَا أَوْجَبْتُ هَذَا الْعَدَدَ لِكَوْنِهِ عَدَدًا مَوْصُوفًا بِصِفَةِ الْكَمَالِ خَالِيًا عَنِ الْكَسْرِ وَالتَّرْكِيبِ .[1]

قال أبو السعود : ﴿كَامِلَةٌ﴾ صفةٌ مؤكدةٌ لعشرة تفيد مبالغةً في المحافظة على العدد أو مبيِّنةٌ لكمال العشرة فإنها أولُ عددٍ كاملٍ إذْ به ينتهي الآحادُ ويتم مراتبُها أو مقيِّدة تفيدُ كمالَ بدليتها من الهدْيِ .[2]

وقيل : الجملة لفظها على سبيل الإخبار ، ومعناها الأمر : أي أكملوها ، فذلك فرضها ، فاللفظ وإن كان خبرا في الظاهر ، إلا أنه يحمل معنى الأمر والتقدير : فَلْتَكُنْ تِلْكَ الصِّيَامَاتُ صِيَامَاتٍ كَامِلَةً لِأَنَّ الْحَجَّ الْمَأْمُورَ بِهِ حَجٌّ تَامٌّ عَلَى مَا قَالَ: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وَهَذِهِ الصِّيَامَاتُ جُبْرَانَاتٌ لِلْخَلَلِ الْوَاقِعِ فِي ذَلِكَ الْحَجِّ ، فَلْتَكُنْ هَذِهِ الصِّيَامَاتُ صِيَامَاتٍ كَامِلَةً حَتَّى يَكُونَ جَابِرًا لِلْخَلَلِ الْوَاقِعِ فِي ذَلِكَ الْحَجِّ، الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ تَامًّا كَامِلًا، وَالْمُرَادُ بِكَوْنِ هَذِهِ الصِّيَامَاتِ كَامِلَةً مَا ذَكَرْنَا فِي بَيَانِ كَوْنِ الْحَجِّ تَامًّا، وَإِنَّمَا عُدِلَ عَنْ لَفْظِ الْأَمْرِ إِلَى لَفْظِ الْخَبَرِ لِأَنَّ التَّكْلِيفَ بِالشَّيْءِ إِذَا كَانَ مُتَأَكِّدًا جِدًّا فَالظَّاهِرُ دُخُولُ الْمُكَلَّفِ بِهِ فِي الْوُجُودِ، فَلِهَذَا السَّبَبِ جَازَ أَنْ يُجْعَلَ الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِالْوُقُوعِ كِنَايَةً عَنْ تَأَكُّدِ الْأَمْرِ بِهِ، وَمُبَالَغَةَ الشَّرْعِ فِي إِيجَابِهِ. [3]

---

[1] روح المعاني : ١ / ٤٨٠ .

[2] تفسير أبي السعود : ١ ٢٠٧ .

[3] ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي: ١/ ٢٥٦ ط : دار الكتب العلمية بيروت ، الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م ،ومفاتيح الغيب : ٣/ ١٧١

وعلى كل فإن ذكر جملة:﴿ تلك عشرة كاملة﴾ بعد قوله تعالى :﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم ﴾ من باب التوكيد على إظهار الأمر وتقريره في النفوس لأهميته البالغة في إتمام النسك والامتثال لأمر الله الذي صدرت به الآية الكريمة في قوله ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله﴾ والتوكيد طريقة مشهورة في كلام العرب،وجريا على أساليبهم في التعبير عن المعاني العظام،وهو كثير الوقوع في القرآن الكريم ومنه قوله تعالى:﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ [2] والفائدة فيه أن الكلام الذي يعبر عنه بالعبارات الكثيرة ويعرف بالصفات الكثيرة، أبعد عن السهو والنسيان من الكلام الذي يعبر عنه بالعبارة الواحدة، فالتعبير بالعبارات الكثيرة يدل على كونه في نفسه مشتملا على مصالح كثيرة ولا يجوز الإخلال بها،أما ما عبر عنه بعبارة واحدة فإنه لا يعلم منه كونه مصلحة مهمة لا يجوز الإخلال بها،وإذا كان التوكيد مشتملا على هذه الحكمة كان ذكره في هذا الموضع دلالة على أن رعاية العدد في هذا الصوم من المهمات التي لا يجوز إهمالها البتة [3]

****

ومما هو داخل في هذا الباب قوله تعالى في بيان أهوال يوم القيامة . فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية .

---

(1) سورة الحج : آية : ٤٦

(2) سورة الأنعام : آية : ٣٨

(3) مفاتيح الغيب : ٣ / ١٧١ .

وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [1]"

وهذه الآيات شروع في بيان نفس الحاقة، وكيفية وقوعها أثر بيان عظم شانها، والتفخيم في أمرها في بداية السورة في قوله تعالى ﴿ الْحَاقَّةُ* مَا الْحَاقَّةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [2]" وبيان إهلاك مكذبيها، فيبدأ بذكر مقدماتها بقوله ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ...﴾ الآيات[3]"

وثمت مناسبة أخرى بين الآيات وما سبقها وهي انه لما هدد الله – تعالى– المكذبين بيوم القيامة من أمثال ما نال أمثالهم في الدنيا في قوله : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [4]" .فلما تم تهديدهم بعذاب الدنيا فرع عليه إنذارهم بعذاب الآخرة الذي يحل عند القارعة التي كذبوا بها[5].

والمراد بالنفخة –هنا– النفخة الأولى التي عندها خراب العالم قال الألوسي: والمراد بالنفخة الواحدة، التي عندها خراب العالم، كما قال ابن عباس وقال ابن المسيب ومقاتل :هي النفخة الآخرة، والأول أولى لأنه المناسب لما بعد ،وإن كانت الواو تدل على الترتيب لكن مخالفة الظاهر من غير داع مما لا حاجة إليه "[6]

---

[1] سورة الحاقة : اية :١٣-١٨

[2] سورة الحاقة : اية :١-٣

[3] ينظر :تفسير أبي السعود:٢٣/٩ ،والفتوحات الإلهية:٨/ ٩٧ ،وفتح القدير :٥/٤٠٠

[4] سورة الحاقة : ٤-٦

[5] التحرير والتنوير:١٢٤/٢٩

[6] روح المعاني : ١٢٤/٢٩

ولفظ « نفخة » على وزن "فعلة" - بفتح الفاء، وسكون العين، وفتح اللام، وهي تدل على الفعلة الواحد. أي: القيام بالفعل مرة واحدة، ومن ثم فهي تدل على الوحدة والأفراد في ذاتها ، قال ابن الحاجب: "والمرة من الثلاثي المجرد الذي لا تاء فيه على فعله، نحو: ضربه، وقتله[1]": أي: بناء المرة الواحدة من الثلاثي المجرد من الزوائد الذي لا تاء فيه على (فعلة) بفتح السكون، فتح. نحو ضربت ضربه، وقتلت قتله، وقمت قومه- وقعدت قعدة[2]". وقال ابن سراج: وأما المرة الواحدة من الفعل فهي على "فعلة"، نحو ضربة، وقومة[3] وذكر الشيخ خالد الأزهري انه "يدل على المرة من مصدر الفعل الثلاثي المتصرف التام بـ "فعلة" بالفتح في الفاء كما فعلها. كـ: جلس جلسة، ولبس لبسة... إلا إذا كان بناء المصدر العام- أي المطلق الصادق على القليل والكثير عليها، أي على "فعلة" بالتاء،فيدل على المرة منه،أي من المصدر العام المبني على "فعلة" بالوصف بالوحدة وشبهها،كـ: رحم رحمة واحدة، أو مفردة[4]" وكلمة « نفخة » في الآية الكريمة من الألفاظ الدالة على حدوث الفعل مرة واحدة لكونها بنيت على الثلاثي المتصرف التام، ولم يكن مصدرها

---

(1) الشافية في علم التصريف لابن الحاجب :١/٧ تحقيق : حسن أحمد العثمان ، ط :المكتبة المكية – مكة – الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

(2) شرح شافية ابن الحاجب:لابن شرف شاه:١/٣٠٩تحقيق:عبد المقصود محمد عبد المقصود،ط:مكتبة الثقافة الدينية، الأولى:١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م

(3) الأصول في النحو :لابن السراج ٣/١١٠، تحقيق:عبد الحسين الفتلي، ط:مؤسسة الرسالة،الثالثة:١٩٨٨م .

(4) ينظ :شرح التصريح على التوضيح : للشيخ : خالد الأزهري : ٢/٣٧ ط:دار الكتب العلمية-بيروت – لبنان ،الأولى :١٤٢١هـ ٢٠٠٠م

العام المطلق ما ختم بالتاء، فيقال: نفخ نفخاً، ومثله " دكًّا دكًّا " ومنه قوله تعالى "كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا "[1] وضرب ضربا، ... وهكذا ، ومن ثم ليس هناك حاجة بأن توصف بالوحدة أو شبيهها للدلالة على الوحدة والأفراد لكون ذلك واقع في ذاتها، ولم يكن مصدرها العام – المطلق– على فعلة بالتاء في آخره وقد ذكر –سابقاً– أن الجمع بين العدد والمعدود يكون فيما وراء الإفراد والتثنية لبيان ما أبهم من عدد لأن المعدود لا يدل على عدده الخاص به مفهوماً أو منطوقاً أما ما يدل على الأفراد والتثنية فلا حاجة معها على ذكر العدد، وإن ذكر صريحا بعدها، يكون لغرض بلاغي رمي إليه المتكلم من كلامه. ومن ثم فإن ذكر قوله ﴿ واحدةً ﴾ بعد ما دل على الأفراد والوحدة بالمفهوم في قوله "نفخة" دون مقتضى لفظي لذكرها جاءت تأكيدا للمعنى، وتقريه في النفوس، وترسيخه في الأذهان. قال الطاهر بن عاشور: و﴿ نَفْخَةٌ ﴾ مصدرها "نفخ" مقترن بهاء دالة على المرة، أي الوحدة[2]وقال الشوكاني:"قرأ الجمهور:﴿ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ ﴾، بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة بالنيابة و "واحدة" تأكيد لها، وحسن تذكير الفعل لوقوع الفصل[3]"– أي الفصل بين الفعل ومصدره بالجار والمجرور "في الصور" ، فوصف ﴿ نَفْخَةٌ ﴾ بـــ ﴿واحدةٌ ﴾ تأكيدا لمعنى الأفراد والوحدة، فتكون الإفادة بالمفهوم أولا،وبالمنطوق ثانيا،وعلمان خير من علم واحد. والتنصيص على العدد بعد الوقوف عليه مفهوماً للتنبيه على التعجب

---

[1] سورة الفجر: آية ٢١

[2] التحرير والتنوير: ٢٩/١٢٤

[3] فتح القدير: ٥/٤٠٠

من تأثير جميع الأجساد البشرية بنفخة واحدة، دون تكرير تعجيب عن تعظيم قدرة الله، ونفوذ أمره، لأن سياق الكلام من مبدأ السورة تهويل يوم القيامة فتعداد أهواله مقصود، ولأجل القصد إليه -هنا- لم يذكر وصف واحدة في قوله تعالى : ومِنْ آياتِه أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِه ثُمَّ إذا دعاكُمْ دَعْوةً مِن الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُون "[1]" فحصل في ذكر ﴿ نفْخَةٌ واحدَةٌ ﴾تأكيد معنى النفخ،وتأكيد معنى الوحدة"[2]"

يقوم الإمام عبد القاهر: "وأن من الصفة صفة لا يكون فيها تخصيص ولا توضيح، ولكن يؤتي بها مؤكدة، كقولهم: "أمس الداير" وكقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ ﴾ [3]" وليس المراد بقوله: ﴿نَفْخَةٌ واحدَةٌ ﴾ أنها غير متبعة بثانية لورود في أي الذكر الحكيم، فقد نصت آيات أخرى في موضع آخر على أنهما نفختان، الأولى: للفناء، والثانية: تعقيبها بعد ذلك بمدد وتسمى نفخة البعث والنشر، قال تعالى: ﴿ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [4]" وإنما المراد بالوصف- هنا- هو التأكيد على شدة النفخة وقوتها حتى إنها لا تحتاج إلى أخرى تساعدها في إفناء من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، كما أن الوصف كناية عن السرعة، ووقوع الواقعة، فكأنه ليس بين النفخة وقيام الساعة زمان يوجب فيه تكرار النفخ.

---

[1] سورة الروم: آية ٢٥

[2] التحرير والتنوير: ١٢٥/٢٩

[3] دلائل الإعجاز: ١٣١

[4] سورة الزمر: آية ٦٨

وإنما حسن التأكيد هنا- لكون الآيات سيقت في ثنايا سورة هائلة رهيبة...فهي منذ افتتاحها إلى ختامها تقرع الحس، وتطالعه بالهول القاصم والحد الصارم، والمشهد تلو المشهد، كله إيقاع ملح على الحس، بالهول وبالإجلال آنا، وبالعذاب آنا، وبالحركة القوية في كل آن [1].

والآيات تبرز مشهد القيامة المروع، وفي نهاية الكون الرهيبة، وفي جلال التجلي وهو أروع وأهول[2]. ومن بين هذه المشاهد القاضية، والأهوال القاصمة، موقف النفخ في الصور، وما فيه من قوة أخاذة، وسرعة فائقة، وإرادة نافذة، ونفخة قاصية قاصمة.ومثل هذا الموقف يحتاج الأسلوب معه إلى قوة في العرض، وتأكيد للمعنى طلبا لتقريره في الأذهان وترسيخه في النفوس، ومن ثم تناسب الإتيان بالوصف الدال على الوحدة والأفراد منطوقاً بعد ذكر ما يدل عليه مفهوماً، وهذه من آيات بلاغة القرآن الكريم، وصور من إعجازه الحكيم .

---

1. ينظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٦٧٤.

2. السابق نفسه.

الخاتمة

وبعد هذا التنقل في رياض البلاغة القرآنية من خلال البحث عن بلاغةالعدد غير المقيد لمعدوده في القرآن الكريم والقيام بالدراسة التحليلية لبعض النماذج المتنوعة منه.مما يفي بالغرض ويؤدي المقصود،نستطيع أن نقف مع البحث على عدة نتائج متنوعة ومتعددة أهمها :

(أ) ــ يمتاز أسلوب العدد في القرآن الكريم بكثرة أساليبه وتعدد صوره ما بين مقصود في ذاته مقيد لأفراده ، وبين خروجه عن هذا الحد ، والوصول به إلى أغراض بلاغية أخرى رمى إليها من الكلام وحسب مقتضيات المقام .

(ب) ــ اتبع القرآن الكريم في التعبير بالعدد العرب في كلامهم وأساليبهم في التعبير عن المعاني فإنهم كانوا يذكرون العدد ولا يريدون به حقيقته المعروفة ، وإنما هو من قبيل المبالغة في الوصف أو المبالغة في التأكيد ، كما مر بيانه

(ج) ــ أن التعبير بالعدد بهذه الصورة غير المرادة إذا قورن بينها وبين النص الحقيقي العادي وجدناه يمتاز عنه بعدة وجوه منها :

ــ الإيجاز ــ التوكيد ــ المبالغة

ــ فالإيجاز من حيث أن ذكر المعنى بهذه الصورة غير خلاف الظاهر له والمتمثلة في التعبير بالعدد على غير مراده فيه من ذكر المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة ، لقصد المبالغة في الوصف ، أو الكثرة ، أو المبالغة في التوكيد والتقرير .

ــ أما التوكيد فإنه إذا ذكر العدد بداية ووصوله للمخاطب على صورته ، ثم باز له بعد فكر وروية أنه غير مراد ووقف على حقيقته ، دخل عنده دخول المأنوس مما يجعل المعنى أكثر وضوحا وأظهر بيانا لدى

المخاطبين مما يجعل للمعنى متمكنا في النفس ، ومركوزا في الذهن ، ومؤكدا في عقل المخاطب فضل تأكيد ، وهذا هو المنهج القرآني المعجز في التعبير عن المعاني العظيمة ذات أهمية بالغة لدى المخاطبين ، لاسيما ما كان منها متصلا بأبواب العقيدة من حديث عن مبدأ التوحيد ، وبيان صفات الله تعالى ، أو ذكر أحوال الآخرة وما يقع فيها .

ـ وأما المبالغة : فإنها تتحقق من استعمال العرب للعدد ولا يراد به ذاته وإنما المبالغة في الوصف.أو المبالغة في التوكيد ـ كما مر بيانه ـ

وبعد:اللهم هذا بحثي قد ضمنته جهدي.لأدرك من خلاله جانبا من جوانب الحق الذي يتم به الخير ، فتقبله ـ ربنا ـ بقبول حسن وأنبته نباتا حسنا،وأجرنا فيه خيرا ، وحسبي أني اجتهدت ، ولا يخطئ المجتهد الأجر﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [1]

والحمد لله بداية لا تنتهي ونهاية لا تزال تبدأ ، فـ﴿ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [2]

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباحث : الدكتور : أحمد محمود محمد الجبالي

مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

ـ بنات ـ كفر الشيخ ـ جامعة الأزهر الشريف

---

[1] سورة الحديد : آية ٢١ ، وسورة : الجمعة : آية : ٤

[2] سورة القصص : آية : ٧٠

ثبت المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾

ثانيا : (١) أحكام القرآن لابن العربي ط/ دار الكتب العلمية بيروت

(١) أساس البلاغة للزمخشري: ت، محمود فهمي حجازي ط الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسة الذخائر ٢٠٠٣.

(٢) أسباب النزول لأبي الحسن النيسابوري : ، تحقيق : كمال بسيوني زغلول، ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت – الأولى ١٤١١ هـ

(٣) الأمثال في القرآن الكريم : دكتور : الشريف منصور بن عون العبدلي ، ط :عالم المعرفة ، الأولى ١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٥م ٠

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " المعروف بـ " تفسير أبي السعود "ط ، دار إحياء التراث العربي – بيروت – ٠

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ : محمد الأمين الشنقيطي : ط/ دار الحديث القاهرة ، الأولى،١٤٢٦- ٢٠٠٦م

(٦) الإيضاح في علوم البلاغة- للخطيب القزويني ت: محمد عبد المنعم خفاجي ط / دار الجبل-بيروت الثالثة ١٤١٤ه-١٩٩٣م.

(٧) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي،ت:مصطفى عبد القادر عطا ، ط : دار الفكر بيروت لبنان ، الأولى : ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م

(٨) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : الفيروزآبادي ،تحقيق:محمد علي النجار ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

(٩) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د/محمد أبو موسى: ط مكتبة وهبه ٠

(١٠) بيان إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ت:محمد خلف الله أحمد.و محمد زغلول سلام ط/ دار المعارف الرابعة
(١١) البيان والتبيين: للجاحظ:ت:عبد السلام هارون ط دار الجيل بيروت لبنان
(١٢) التعريفات :للجرجاني تحقيق د/عبد الرحمن عميرة ط:عالم الكتب ، الأولى
(١٣) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور:ط دار سحنون تونس.
(١٤) تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري الهروي :تحقيق : محمد عوض مرعبط:دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة: الأولى. ٢٠٠١م
(١٥) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الأولى- ١٤١٣ه- ١٩٩٣م.
(١٦) تفسير السعدي المسمى بتسيير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ط مؤسسة الرسالة. الأولى.
(١٧) تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الألوسي البغدادي، ط دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان، الرابعة، ١٤٠٥- ١٩٨٥.
(١٨) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي:،ط دار الغد العربي، الثانية.
(١٩) التفسير الكبير، للفخر الرازي: ط دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٤ه، ١٩٩٤م
(٢٠) تفسير الفتوحات الإلهية: بتوضيح تفسير الجلالين، للجمل ط دار الفكر: ١٤١٥ه- ١٩٩٤م،.
(٢١) تفسير في ظلال القرآن- للشيخ / سيد قطب ، يتصرف، ط دار الشروق، السادسة عشرة ١٤١٠ه، ١٩٩٠م.:

(٢٢) تفسير المنار للشيخ محمد عبده، والسيد رشيد رضا: ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(٢٣) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، للإمام جلال الدين السيوطي ط دار الكتب العلميه بيروت لبنان،الأولى ١٤٢٣هـ٢٠٠٢ م
(٢٤) الجني الداني في حروف المعاني: للمرادي:،ت فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل ط دار، الكتب العلمية. بيروت الأولى ١٤١٣، ١٩٩٢م
(٢٥) حماسة أبي تمام : ط دار السعادة ١٣٣١هـ
(٢٦) حاشيةُ الشِّهاب على تفْسيرِ البيضاوي، لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي المصري الحنفي: دار صادر – بيروت
(٢٧) دراسات في علم المعاني : د / حسن مخيمر : ط : مطبعة الأمانة ، الأولى ، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م ٠
(٢٨) دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني: ت / محمود محمد شاكر ط: مطبعة المدني ، القاهرة، -مطبعة المدني جدة -١٤١٣-١٩٩٢م.
(٢٩) دلالات التراكيب:محمد أبو موسى: القسم الثاني:٢٥١مكتبة وهبة.
(٣٠) ديوان امريء القيس : ت / عبد الرحمن المصطاوي ط ، دار المعرفة – بيروت – الثانية ،١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤ م
(٣١) ديوان امرئ القيس : ط دار صادر بيروت
(٣٢) سنن الإمام النسائي :تحقيق / عبد الفتاح أبوغدة ، ط / مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب ، الثانية ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
(٣٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد : ٧٧٩/١ ، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري ، ط، دار الكتب العلمية
(٣٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة : تحقيق: أحمد محمد شاكر ط : دار المعارف ، الثانية ، ١٩٦٨م ٠

(٣٥) الصاحبي لابن فارس :تحقيق / السيد احمد صقر ط الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة الذخائر: ٢٠٠٣.
(٣٦) صحيح البخاري ط/ دار الفكر ، الأولى ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م
(٣٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني: ط دار الفكر الأولى ١٤١٨-١٩٩٧
(٣٨) فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي : ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ط: إحياء التراث العربي : الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
(٣٩) لسان العرب: ".ط دار لسان العرب
(٤٠) اللباب في علوم الكتاب : لابن عادل الدمشقي الحنبلي : ٢ / ٧٨ تحقيق : الشيخ : عادل أحمد عبد الموجود ،و الشيخ : علي محمد معوض ط ، دار الكتب العلمية بيروت.الأولى : ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م
(٤١) المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر لابن الأثير ت:محمد محيي الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية بيروت ١٤١٦هـ١٩٩٥م
(٤٢) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس تحقق: عبد السلام محمد هارون ط: دار الفكر : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
(٤٣) مفتاح العلوم للسكاكي : تحقيق : نعيم زرزور ط : دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م
(٤٤) المطول- للتفتازاني: ١٥ط المكتبة الأزهرية للتراث..
(٤٥) من بلاغة القرآن فيما يسجد العباد بسببه للرحمن د / مالك حسين الدسوقي النعيري : ط / دار الإتحاد التعاوني ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م
(٤٦) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص:طدار الكتب العلمية، بيروت
(٤٧) الواضح في أصول الفقه لأبي الوفاء على بين عقيل البغدادي: ت عبد الله التركي ط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى ١٤٢٠هـ .